بركات وأنوار القرآن

فضيلة الشيخ

د/ محمد الدبيسي

حفظه الله وعفا عنه

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٧ هـ الموافق يونيو ٢٠١٦ م

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

أما بعدُ...

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وكلَّ محدَثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد[1].

لن يزال الحديث على القرآن الكريم مستمرا إلى أن تنتهي الدنيا، ذلك الكتاب الذي جاء فأخرج الدنيا من ظلماتها إلى نور الله تعالى ومن ضيقها إلى سعة الآخرة، وكان

(١) حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٣/٢٧) والذهبي في المهذب (٣/١١٤٢).

اتباعه سبب تحقيق نجاة الخلق في الدنيا والآخرة؛ بمعرفة الحق سبحانه وتعالى والإقبال عليه وعبادته وسلوك طريق الآخرة.

وذلك لأن القرآن هو أعظم شيء يُعرِّف المرء بالله تعالى ويهديه في طريق السير إليه، لا سيما إذا عظم المرء كلام الله حق تعظيمه وقدَّره حق قدره.

إن القرآن الكريم قد وُصف بكل أوصاف الثناء والمدح والعظمة والجلال، فقد وُصف القرآن الكريم بالبركة فقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] وكذلك جاء في وصف القرآن أنه الهداية والشفاء: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤] فهو طريق الله تعالى الذي ينبغي أن يستمسكوا به في سيرهم ليهتدوا وليثبتوا على الهداية وليستمروا مهتدين إلى أن يلاقوا الله تعالى، فإن قابلتهم الأمراض والعلل، والشبهات والشهوات كان الشفاء في القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]. فإذا وجدوا الشدة والبلاء والغلظة والمصائب والأنكاد والآلام إذا به الرحمة التي تمسح جراحهم وتتنزل على أفئدتهم، وإذا به الرحمة التي بها يستنشقون عبيرًا جديدًا في هذه الحياة يستطيعون السير به في استكمال دعوتهم وطريقهم إلى الله تعالى: ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد وصف القرآن كذلك بأنه الروح لتوقف الحياة الحقيقية عليه، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

فبينت هذه الآية أنه لا حياة بغيره ولا حياة بدونه لذلك قال المولى سبحانه وتعالى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وبينت الآية كذلك أن القرآن هو النور كما سنوضح.

وقد بين الرب جل وعلا في كتابه أن القرآن هو أعظم ما يمكن أن يؤتاه المرء فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨] بمعنى: أن القرآن الكريم والسبع المثاني أعظم شيء تحصله وتستفيده في دنياك وفي أخراك وأنه أولى لك وأغنى لقلبك وأصلح لنفسك، وكذلك أبرك في وقتك وجهدك من أي شيء آخر، لذلك قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ [الحجر: ٨٧] وأعقب ذلك بقوله: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر: ٨٨]، فلا تتطلع إلى هؤلاء الحائزين للدنيا الحريصين عليها ولكن.. ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [عبس: ١١-١٣].

لذلك فإنه لا سبيل لإصلاح شأن المسلمين اليوم مما يعانون ويشتكون إلا القرآن. إنهم يشتكون في هذه الأيام من كل المصائب والشهوات والشبهات وضيق الوقت وقلة ذات اليد وسوء الأخلاق والمنكرات التي امتلأت بها الدنيا في كل مكان، كل ذلك لا يحافظ عليهم فيه ويربط على قلوبهم ولا يشفي أمراض قلوبهم التي تعلقت بهذه الدنيا وخافت عليها إلا هذا القرآن الكريم.

ومن ثم جاءت هذه الرسالة -وهي تفريغ لمجموعة من الخطب التي كان قد ألقاها فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي عن بركة ونور القرآن - لتكون تذكيرا بتلك المعاني من بركة وأنوار القرآن ليتزود منها أهل الإيمان؛ لتحل تلك البركة عليهم وعلى أولادهم وبيوتهم وحتى تكون سببًا لثباتهم وتحملهم الصعاب والمشاق والمتاعب، وحتى يكون نورًا عليهم وعلى من حولهم ليثبتوا ويواصلوا السير إلى الله تعالى.

وقد حاولنا فيها أن نقتصر على ما ينبغي التكلم عليه، لذلك فنحن في محيط الاختصار حتى نُحصل رءوس المسائل وبعض أمثلتها لتكون عنوانا للمرء يذهب إليه، وتكون دليلا له يهتدي به، وتكون قائدًا له يسير وراءه إلى أن يصل لاستشعار تلك المعاني برحمة الله تعالى.

وبعد:

فإننا نرجو في وجه الله الكريم أن يمنَّ علينا بقبول جهدنا الضئيل في هذه الرسالة المتواضعة، وأن ينفع بها قائلها وقارئها وكاتبها وناشرها، ونلتمس العذر من القارئ على ما قد يصادف فيها من أخطاء، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

مسجد الهدي المحمدي

٢٣ رمضان ١٤٣٧ هـ

الفصل الأول:

بركة القرآن الكريم

من أهم الصفات التي بلغها الله تعالى للمؤمنين عن القرآن الكريم هي صفة البركة. فالقرآن هو ذلك الكتاب المبارك الذي أنزله الله تعالى، وطالما كان ذكرًا وكتابًا مباركًا فلا شك أن أخذه بركة وأن تركه حسرة.

ونشير لشيء من معاني آيات البركة، وإن كانت هذه الآيات معانيها مليئة بتلك المكنونات القرآنية والتأويلات اللائقة بهذه الألفاظ الإلهية، وإنما نوضح على قدر المستطاع من الجهد.

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿ **وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا** ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٦] والآية الثانية: ﴿ **وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝** ﴾ [الأنعام: ٩٢] ، والثالثة في قوله: ﴿ **كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝** ﴾ [ص: ٢٩] والرابعة التي ورد فيها ذكر القرآن بكونه مباركًا قوله تعالى: ﴿ **وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝** ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

لنسمع هذه المعاني من معاني البركة، تلك البركة التي ينهل منها المرء ولا تنقضي، ويأخذ منها ولا تنحصر، تلك البركة التي لا حد لها؛ ليكون ذلك سبيلاً للمؤمنين أن يرفعوا الشقاء والبؤس الذي نزل علينا بمحق تلك البركة من كل شيء. لقد محقت البركات اليوم من أوقات المؤمنين ومن جهدهم ومن علمهم ومن عملهم ومن جهادهم، ومن أرزاقهم في أرزاق الدنيا وأرزاق الآخرة. وكذلك محقت من أولادهم و بيوتهم.

ويظهر ذلك حين تسأل أحدًا أن يقوم بشيء من كلام الله جل وعلا قراءة أو حفظا ليستثمر كلام الله جل وعلا في إصلاح أحواله ولينتظم سيره إلى الله جل وعلا إذا به يقول: ليس هناك وقت وليس هناك جهد بعد العمل وبعد النوم وبعد الأكل والشرب، ومن أين يأتي المرء بوقت يستطيع أن يقوم فيه بشيء مما تقول وتدعي؟ كل ذلك الحل فيه: هو بركة القرآن الكريم، لأنه من الله تعالى، فكل ما تريده من بركة فالله جل وعلا حدد لك طريقه ووسع عليك فيه، فهو سبحانه له ميراث السماوات والأرض، ولكنك المرء هو الذي يضيق على نفسه ويحرمها ويمنعها ذلك كله !

وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٢] والمتابع لآيات القرآن الكريم يرى أن المشركين قالوا قبل هذه الآية القول الضالّ الذي واجهوا به النبي -صلى الله عليه وسلم- : ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١]، فإذا به يرد عليهم: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ

قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩١]

ثم جاء قوله: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

فلما قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أنزل الله من شيء وأنت مدّع وغير ذلك مما واجهوا به النبي صلى الله عليه وسلم وضاق به صدره ، كما جاء في قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧] ، نزل القرآن ليقول له صلى الله عليه وسلم: قل لهم- إن كانوا يهودا أو مشركين أو غير ذلك – من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس؟ قل الله لا تنتظر إجابتهم هم يعلمون أن الله هو الذي أنزل ذلك ثم عطف هذا القول: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢]، أي وهذا الكتاب أنزله الله أيضًا؛ لأن معنى العطف على هذا النحو، أن الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وهو الذي أنزل سبحانه الكتاب الذي تتكلمون عليه وتثيرون حوله تلك الشبهات التي تدعون.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ والبركة هي: الخير الكثير والنماء، أي أن هذا الكتاب قد ملئ خيرًا ناميًا متناميًا متزايدًا ؛ فكلما أخذت منه خيرًا زادك خيرا ولا تنفد خيراته إلى يوم يبعثون حين يرى المرء تأويل ذلك.

ومعنى أن هذا الكتاب مبارك أيضا أنه: مبارك فيه ومبارك عليه ومبارك له. فلفظ البركة يقال فيه: بارك الله لك، أو بارك عليك، أو باركك الله تعالى، أو بارك فيك، وهذه الأربعة متحققة للقرآن: فهو مبارك فيه وباركه الله ومبارك عليه ومبارك له.

ومبارك فيه: أي ما يتعلق بالبركة في ذاته هو، وتختص بغيره ممن يأخذه، أي مبارك فيه لغيره عندما يأخذه، وباركه الله: أي أن ما يتعلق فيه من البركة إنما هو صفة لهذا القرآن، وبارك عليه: لتمكن البركة منه تمكنًا شديدًا، ويسمى هذا في اللغة: العلو الكنائي. وشواهد هذه المعاني في اللغة موجودة في القرآن مثل قوله: ﴿ **أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [النمل: ٨].

فهذا القرآن قد امتلأ خيرًا بذاته ولغيره، وما أوحاه الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- هو أعلى الخير الذي يمكن أن تحصله في الدنيا وتحصل به خير الآخرة. تراك أيها المسكين يمكن أن تجد خيرًا في غير كلامه سبحانه؟!

وتكمن بركة وعظمة كلام الله تعالى في أنه يعرفك بالله جل وعلا. لأنه في هذه الدنيا الان فإن الذي يدلك على الله تعالى هو كلامه ومخلوقاته سبحانه وتعالى التي لا حصر لها. ولكن القرآن يتعلق بصفة من صفاته -وهو كلامه سبحانه وتعالى- ومن خلالها تعرف ربك سبحانه وتعالى وتوحده وتحبه وتقبل عليه وتفرده بالعبادة والتوكل.

لذلك كان في هذا الكلام أعظم بركة يمكن أن تتخيلها في الدنيا، إذا كان هو كلام الله تعالى فهل توازي به كلام البشر مثلاً أو كلام من في الدنيا من أولها إلى آخرها أو الإنس والملائكة والجن؟! لذلك فليس ثمة شيء يحصل المرء به البركة كما يحصلها بالقرآن الكريم.

ولأن الله تعالى قد ملأه لك خيرًا متناميًا، فكلما أخذت سورة وعملت بها ازددت خيرًا، وكلما ازددت خير ازددت خيرًا وهكذا، كما قال الله تعالى: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**

﴾ [إبراهيم: ٧]، فإن شكر المرء ربه على منة القرآن زاده فإن شكر ثانية زاده وهكذا، ويتحرك إلى الله تعالى بالعمل وزيادته. فإذا تتحرك بحسنة أخذت عليها عشر حسنات فصرت تتحرك بإحدى عشرة حسنة فأخذت عليها عشر حسنات فصرت تتحرك إلى الله بمائة حسنة، وهكذا يتضاعف الأجر والخير.

وكلما ازدادت الحسنات قلت السيئات وكلما ازدادت الحسنات بورك للناس فيما يحبون أن يبارك الله لهم فيه، وقد رأوا ما هم فيه من الشقاء الذي يودون أن يرفع بهذه البركة التي قد تمكنت منه وكلما أخذت منه شيئًا في أي مجال لك فهو بركة .. في دعوتك فهو بركة، في عبادتك فهو بركة، في أخلاقك فهو بركة.

والبركة الأولى: إنما هي في تلاوته؛ لأنه لما كان ذلك الكلام مباركًا فإنك عندما تتلوه وتقرؤه وتحرك به لسانك وقلبك فقد أخذت منه البركة التي تود أن تحصلها، وإن حققت آداب التلاوة ازدادت بركتها في قلبك ولسانك، وظهرت على جوارحك .

والبركة الثانية: في أنك إذا عملت بهذه الآيات من كلام الله جل وعلا تطهرت نفسك وفاضت عليها تلك الأنواع من علوم الرب سبحانه وتعالى، التي ترقى بها إلى الكمالات، وإلى الدرجات العلى التي قد وصفها الله جل وعلا للمؤمنين.

لذلك قال الإمام الفخر الرازي - وهو يتكلم عن القرآن الكريم -: سنة الله جل وعلا في خلقه أنه ما من مستمسك بهذا الكتاب الكريم إلا وحصل عز الدنيا وسعادة

الآخرة [1]. لأنه يُحصل به العلوم العلمية والعلوم العملية التي تطهر النفس من آفاتها وصفاتها المرذولة، وتملأ النفس يقينًا ورضًا، وتملأ النفس ثباتًا وتضحية، وتملأ النفس إقبالاً على الله جل وعلا، وتخرج منها ما يمكن أن يكون من القوة اللازمة حتى يستطيع السير إلى الله جل وعلا وحتى ينجو عند الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الرازي عنه نفسه: ولقد نقلت علومًا كثيرة نقلية وعقلية فما وجدت السعادة في غير البحث وخدمة هذا الكتاب في كلام الله تعالى. فلم يجد السعادة إلا فيه، بعدما طاف على كل أبواب العلوم ليحصل شيئًا من معلومات العقول أو من معلومات المنقول.

نعود إلى بداية الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]، فبيّن أنه نازل أي من العلو الأعلى،وذلك دليل الشرف ودليل العظمة ودليل ارتفاع المكانة، ثم أضافه إلى ضمير الحضرة الإلهية: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فأضاف الإنزال لله تعالى، ثم أكد هذا بقوله

---

[1] يقول الفخر الرازي: (قوله تعالى : (مُبَارَكٌ) قال أهل المعاني كتاب مبارك أي كثير خيره دائم بركته ومنفعته ، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، وأقول : العلوم إما نظرية ، وإما عملية أما العلوم النظرية ، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب وأما العلوم العملية ، فالمطلوب ، إما أعمال الجوارح وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب ، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة) التفسير الكبير- مفاتيح الغيب- طبعة دار الفكر - الجزء ١٣- ص ٨٥

تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ، ليدلل على علو هذا التنزيل وكرامته وليبين كذلك أن هذا الكتاب في المحل الأسمى والأعلى، وفي ذلك تنبيه بشرفه وتنويه بعظمته وجلاله، فكان المعنى : هذا كتاب أنزلناه نحن الرب الكريم وباركناه وباركنا فيه وباركنا عليه وباركنا له. وهذه البركة هي التي يجب أن يسعى الناس إلى تحصيلها حتى يخرجوا مما هم فيه من ضنك الحياة وضنك الدنيا وضنك الدين والأحوال السيئة التي وصلنا إليها.

قوله تعالى: ﴿ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: هذا الكتاب المبارك مصدق لما بين يديه من الكتب، وهم: التوراة والإنجيل والزبور، وهي الكتب التي أنزلها الله تعالى على موسى وعيسى وداود عليهم السلام ، ولما أخبر الله أن القرآن مصدق لها دل على أنه ما كان من صدق فيها فإن القرآن الكريم هو الذي يحكم عليه، فيقول: هذا صدق وهذا كذب وهذا صحيح وهذا تحريف، فهو المهيمن الحاكم عليها الذي يبين ما كان فيها من صحة وما كان فيها من تحريف واختلاف.

لذلك كان التصديق الذي ذكره الله جل وعلا في هذه الآية من القرآن الكريم على نوعين: <u>النوع الأول:</u> أنه مصدق لهذه الكتب؛ من ناحية أن هذه الكتب قد وعدت ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وها قد جاء صلى الله عليه وسلم وصدقت هذه الكتب بمجيئه فصار ذلك دليل صدق نبوته وصحة رسالته.

<u>والتصديق الثاني:</u> لهذه الكتب أن الله جل وعلا يصدق بالقرآن الكريم ما جاء فيها من أخبار على لسان الأنبياء، فما جاء فيها على لسانهم يكون صادقا إذا صدقهم فيه القرآن،

وإذا لم يصدقهم القرآن فلا نصدقهم ولا نكذبهم إلا إذا خالف القرآن الكريم ما جاء فيها فيها فنصدق القرآن.

لذلك جاء بعدها: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، أي: لتنذر مكة وما حولها من القبائل كخزاعة وثقيف وهوازن وبكر وكنانة والقبائل التي كانت حول مكة. ولتنذرها أي لتنبهها للضرر الآتي عليها إن هي خالفت أمر الله واعترضت على كتاب الله جل وعلا، ولم تأخذ من كلامه سبحانه وتعالى ما يكون سبب رحمتها في الدنيا والآخرة وبركتها في الأولى والآخرة.

لذلك جاء قوله بعدها: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ لأن الإنذار هنا لهؤلاء الكفرة ومن حولهم بما يمكن أن يحل بهم إن هم بقوا على كفرهم وأمعنوا في وضلالهم وساروا في غيهم، لذلك جاء الاحتراز بأن المؤمنين الذين كانوا موجودين في هذه الأيام في مكة وما حولها من القرى، فهؤلاء ليس لهم الإنذار وإنما لهم البشارة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وليس لهم الإنذار.

وفي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ تعريض بالمشركين، فلن يصيبهم إلا الإنذار وكذلك أهل الكتاب؛ لأنهم إن كانوا يؤمنون بالآخرة فهم لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم وليسوا من أهل مكة ولا من حولها لذلك، قال: إن الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الظروف الصعبة وهم كذلك يؤمنون بالآخرة أولئك لهم البشرى، ليسوا كأولئك الذين ينتظرون الشر النازل عليهم بذلك الإنذار من الله تعالى إلا أن يؤمنوا.

وكذلك فإن قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ليس تقييدًا بأن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به، إنما هو متعلق بأهل مكة ومن حولها؛ لأن هؤلاء يؤمنون بالآخرة ولا يؤمنون بالنبي.

أما الصحابة رضوان الله عليهم لما نزلت عليهم هذه الآيات وبينت أن القرآن هو البركة وأن تلاوته هي البركة وأن حفظه هو البركة وأن تعلمه و تعليمه فيه البركة وأن نشر هدايته فيه البركة وأن المجاهدة لأجله فيها البركة .. إذا بهم لم يقصروا يومًا ما في تحمل ذلك العبء بل وجدناهم قد أناروا به بيوتهم ومساجدهم. وإذا بهم قد أحيوا به ليلهم وعمروا به قلوبهم، واستنزلوا به رحمة الله وشفاءه، واستمطروا به نصر الله جل وعلا، وتوسلوا به لله جل وعلا في دعائهم، وإذا بهم قد استنار سبيلهم بهذا القرآن الكريم، وإذا بهم قد تغيرت أحوالهم ودعوتهم وكلامهم ومنطقهم وعلاقتهم ومحبتهم وكراهتهم وعداوتهم، إذا بهم قد تنافسوا في الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، والقيام بأمره والانتهاء عن نهيه، يرجون بذلك كله أن يتحقق لهم هذه المعاني التي أرشد الله تعالى إليها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

الآية الثانية قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ

﴿مُبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠]، ونبين هذه الآيات حتى يستطيع القارئ أن يلم الإلمام الذي يجعله محبًا للقرآن الكريم متدبرًا له.

وهذه الآيات في سورة الأنبياء وهي السورة التي فيها بعض قصص الأنبياء التي تبين الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإلى ما أنزل الله تعالى على أنبيائه، ليأخذوا هؤلاء الناس إلى طريقه ومعرفته ومحبته؛ ولتبين لهم ما يكون سبب إيمانهم، وليحاججهم سبحانه وتعالى بالأدلة العقلية والبرهانية في أنفسهم والآفاق على صحة الدين، وصدق التوحيد له جل وعلا.

لذلك جاءت هذه الآيات أولاً مجملة ثم بدأت في التفصيل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧] إلى آخر هذه الآيات التي تبين إجمال هذه السورة، ثم بدأت في التفصيل فذكرت قصة موسى وهارون وإبراهيم عليهم السلام ، ونوح ولوط وداود وسليمان وقصة ذي النون وعيسى ومريم ، عليهم السلام.

ولكنها بدأت بقصة موسى وهارون؛ لأنها هي الأقرب لهؤلاء المشركين؛ ولأن اليهود والنصارى عندهم علم ذلك في كتبهم التي نزلت عليهم، وعندهم فيها من الله جل وعلا النور والهدى. وهؤلاء المشركون يعلمون أن الرب سبحانه وتعالى أرسل موسى وهارون وأنزل التوراة، فلم يكن غريبًا أن يواجههم أولاً بما يعلمون، لأن هذه الأمة التي

نزلت عليها هذه الكتب - التوراة والإنجيل - كانت من أعظم الأمم في توحيد الله تعالى بعد أمة الإسلام التي جاءها النبي صلى الله عليه وسلم، فبين الله تعالى تفصيل ذلك وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩].

وارتباط ذلك بقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] أن هذه القصة التي ذكرها الله جل وعلا عن موسى وهارون إنما كانت تقدمة لما سيذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم، والقرآن ولتبين أن ما جاء في هذا الكتاب من ذكر وفرقان وضياء ونور اليقين وخشية الله تعالى كل ذلك تمهيد وتوطئة لأن يكون كتاب النبي، وذكره صلى الله عليه وسلم، وافيًا بذلك كله، بل أكثر وفاء بهذه المعاني ومقدمًا على كل هذه الكتب.

لذلك قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ والفرقان هنا أي: التوراة، بمعنى الفرق بين الحق والباطل، وكذلك معجزات موسى عليه السلام من العصا وشق البحر وغير ذلك، كل ذلك ليفرق بين الحق والباطل، فكان هذا الفرقان من الله جل وعلا تأييدًا لموسى عليه السلام، ونورا له كذلك كما قال:﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، والذي تستفيده أمة محمد من هذا الكلام هو أن القرآن جاء أجل وأعلى، ووافيا بمقصود الفرقان والرحمة والنور والضياء من أي كتاب آخر.

وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والذكر هو أن يخطر الشيء على ذهن المرء سواء كان منسيًا أو ذاهلاً عنه أو قد جهله.وقوله : ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فيها احتمالان : <u>الأول</u>: الذين

اتصفوا بالتقوى وكان الذكر لهؤلاء الذين اتصفوا بالتقوى؛ لأنه يذكرهم بما نسوا من أوامر الله ويذكرهم بما جهلوا منها، وكذلك يبين لهم طريق مراقبة الله سبحانه وتعالى، ويجدد لهم هذا الطريق.

والاحتمال الثاني أن يكون المعنى: لأجل المتقين، أي هذا ذكر أنزلناه لأجل المتقين فقط لا لغيرهم، ليكون سببًا لنجاتهم وفرقانهم وللأخذ بأيديهم وثبات قلوبهم على طريق الله جل وعلا، ويكون ذلك المعنى مثل قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [البقرة: ١-٢] فتكون الهداية حالهم عندما يصلون إلى التقوى.

والتقوى هي الامتثال للأوامر الشرعية والانتهاء عن المحرمات، والإقبال على المستحبات والامتناع عن المكروهات، وأن تكون المباحات في حق المتقين قربات يأخذون عليها الحسنات. وهذا الذي نحتاجه نحن، أن نتصف بصفات التقوى، وأن نعلم أنه إذا لم يكن المرء تقيًا فلن يكون القرآن ولا غيره سببًا لتذكره لله، وإنما لا يتذكر إلا من كان تقيًا.

ثم زاد المولى سبحانه وتعالى زيادة في معنى التقوى وزيادة في تعريف المتقين وزيادة في تبيين صفاتهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ٤٩] وهذا مطلوب لأهل الإيمان: أن يخشوا ربهم بالغيب، وأن يكونوا مشفقين من الساعة، والإشفاق الخوف نتيجة توقع حدوث شيء مخيف .

لذلك لما قال: ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ۝ ﴾ يعني: مشفقون من أهوالها وكربها وما ينزل فيها، وأنهم قد أعدوا لهذا الخوف عدته من التقوى، لأن الخطاب للمتقين؛

فلم تقف أحوالهم على الخوف من الساعة وما يحدث فيها فقط، وإنما أعدوا لها عدتها من التقوى حتى يأتوا يوم القيامة آمنين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ : أي الذين يخشون ربهم في الغيب، والذين يخافون ربهم حال كونهم مع أنفسهم فقط، فهم يخافون ربهم لا رياء، ولا خوفًا من العقوبات الدنيوية، ولا خوفًا من مذمة البشر ، وتلك الصفة زيادة في صفات المتقين تبينها هذه الآيات التي تدل على أن الذكر لهؤلاء فقط. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ فيه تعريض بأن الذين ليسوا من المتقين لا يخشون الله، وأن الذين لا يخشون الله ليسوا من المتقين.

ونتعلم من ذلك كيف يتحقق المرء بصفات التقوى وكيف يخاف ويشفق من الآخرة فيعد لها عدتها من التقوى، وكيف يعلم أنه متى فقد الخوف والخشية لم يكن من المتقين، ومهما كان في قلبه من الخشية فإن ذلك يساعده على أن يكون من أولئك الذين يأتون آمنين يوم القيامة وإلا أتى خائفًا كما ذكر المولى سبحانه وتعالى.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ [ص : ٢٩] واسمع هذه المعاني الجديدة في هذا السياق؛ لتكون تكملة للكلام على بركة القرآن الكريم .

وقد جاءت هذه الآية في سياق الكلام على المشركين، في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

﴿إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ...﴾ [ص : ٢٨- ٢٩]. فبعد أن أنهى القرآن الكريم تهديده لهؤلاء المشركين وتوبيخهم على أن تركوا حكمته في التفكر والتدبر في الجزاء والحساب ليوم الآخر ، تحول الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ...﴾ [ص : ٢٩] ، فالمعنى: أنه بعد أن حرم المشركون أنفسهم الانتفاع بآيات الله تعالى، وبالتدبر في كلامه، وبحمل هذا التدبر لهم على الإيمان والعمل الصالح؛ حتى يحصلوا رحمة الله، ذكَّر النبي بالثناء على كلامه سبحانه وتعالى لأنه مبارك، وأنهم لو تدبروا لتذكروا، ولو تذكروا لرشدوا، ولو تذكروا لحصَّلوا ما فقدوه من علم عندما ولوصلوا إلى المعاني التي تحملهم على الإيمان، فكأنه توبيخ، وكأنه في نفس الوقت تعريض بهم –وهي مسوقة أيضًا للمؤمنين - بأن الذين تدبروا وتذكروا هم أولو الألباب، وأن المشركين أولئك ليسوا من أولو الألباب.

ومع أن الكتاب معلوم ومعروف ، إذا بالآية تأتي به منكرًا :﴿ كِتَٰبٌ ...﴾ فَلِمَ نكرته؟ لأن ذلك –كما يقول أهل البلاغة- يوحي بأنه عظيم الشأن، ينبغي أن يكون مصدر عزتهم؛ حتى يتدبروا به، وحتى يتذكروا به، فإن هم تدبروا وتذكروا في كلامه أصابتهم تلك البركة.

لذلك لما أعرض المشركون عن الانتفاع بالقرآن أعرضوا عن العزة ، لأن الكتاب فيه اعتزاز لمن أنزل عليه، واعتزاز لمن تمسك به، واتبع هديه من المؤمنين المتقين، ولما ترك الخطاب المشركين وتوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكأن المعنى: أن هذا الكتاب المبارك مصدر العزة والرفعة، في الأولى والآخرة باتباعه، والاهتداء بهديه، والاقتداء بسنته.

ويبين السياق ﴿ كِتَٰبٌ ...مُبَٰرَكٌ ﴾ أن البركة منبثة في كل آياته، فكل آية من آيات القرآن مباركة، فيها تلك البركة التي هي من كلام الله جل وعلا، وفيها معنى البركة من الخير الكثير والنماء. ومعنى ذلك أن كل آية تحمل الخير، وأن كل آية تمنع الشر والفساد، وبالتالي كانت كل آية تقرأها بركة؛ لأنها إما أن تحمل خيرا أو أن تدفع شرا وفسادا في العاجل والآجل، ولا شيء تأخذه في الدنيا أعظم بركة من أن يدفع القرآن عنك الشر والفساد، ويوافيك بالخير والإسعاد والإرشاد وغير ذلك مما فيه من البركة.

علمت - أيها المؤمن الموقن - هذا **المعنى الجديد**، أنك أن تقرأ الآية تتنزل بركتها، فإذا ما تدبرت زادت البركة، فإذا ما عملت كانت البركة التي لا يصلها وصف، وهي الآية التي لم نذكرها في قول: ﴿ ... كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا ... ﴾ [الأنعام : ١٥٥].

فالآيات متدرجة في تحصيل هذه البركات، **الأولى: أنه بركة في الدعوة والإنذار**، ثم **هو بركة في التدبر الذي ينبني عليه التذكر، ثم هو بركة في العمل : بأن تتبعه وتتقي ربك به؛** لتحصل الرحمة ﴿ ... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] وهذا التدرج في الآيات يبين لنا قيمة كل آية، لحصول الخير بها، ودفع الشر بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ... لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ... ﴾ [ص : ٢٩].

والمعنى الثاني الذي تتحقق به البركة هو: كون هذه الآيات كلام الله تعالى. فلما كانت كلام الله تعالى كانت مباركة؛ إذ لا أبرك من أن تسمع كلام الرب سبحانه وتعالى، يأمر بالخير وينهى عن الشر، وتسمع كلام الرب في الحكمة والعمل الصالح، وتسمع كلام الرب فيما يقص عليك من القصص في هذا القرآن، أو ما يعلمك فيه من أمور الدنيا

والآخرة ومن أخبار القرون الأولى، التي تهب قلبك الموعظة، وتحمل نفسك على الاستيقاظ إلى أمره سبحانه وتعالى ، وتمنع نفسك هواها وشيطانها، وتبين لك سككها ومحاذيرها، وتبين لك أسباب الفوز والنجاة كما ذكر الله تعالى. فكيف لا يكون كلاما مباركا وهو كلامه المنزل سبحانه وتعالى؟!

لذلك قال بعدها: ﴿ ... **لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ** ...﴾ والتدبر لا يكون إلا في الكلام القليل اللفظ الذي يحتوى على معان كثيرة، ومعناه: التفكر والتأمل، حتى يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني.

وأدغمت الدال في التاء للتخفيف (ليدَّبروا) بدلا من (ليتدبروا)، وهي مأخوذة من (دُبُر) أي : وراء، فدبر الشيء ما يأتي في ورائه، أو في آخرته. فعندما تقول: قل في دبر كل صلاة، أي: في آخر كل صلاة، فيكون معنى التدبر: تعقب ظواهر الكلمات ليرى ما في دبر ظواهرها من المعاني، فيتتبع المتدبر كلمات الله تعالى النازلة على قلبه؛ حتى يحصل منها تلك المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة، كما ذكر المولى جل وعلا في قوله: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ** ...﴾ [النساء : ٨٢] وغيرها مما يشبهها من الآيات.

ومعنى ذلك أنك كلما ازددت تدبرًا - أي تأملاً في هذا الكلام وتفكرًا فيه - انكشفت لك معان لم تكن بادية لك عند أول نظرة. ويقرب ذلك المعني قوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا** ...﴾ [ص : ٢٧]، فلو تدبر المرء ذلك حمله على أن يعلم لما خلق، وكيف يحقق ما خلق له، ويعلم الطريق الموصل لأن يحصل سعادته في الدنيا

والآخرة، وليعلم كذلك كيف يحصل هذه البركة بهذا التأمل والتفكر، وكيف يحصل تلك المعاني المقصودة التي أودعها الرب كلامه.

وذلك التفهم والتأمل للآيات مطلوب حتى لو حمل المرء على تكرار الآيات، فقد قام النبي صلى الله عليه وسلم ليلة كاملة بآية واحدة يقول: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، وإن كانت القراءة الطويلة هي هديه صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقرأ في ليله بالبقرة والنساء وآل عمران، ووجدناه يقرأ بالبقرة في ركعة وآل عمران في ركعة أخرى، فوجدناه صلى الله عليه وسلم يقرأ بهذه سور الطوال في الركعة الواحدة[١].

والمعنى التالي الذي يتبع التدبر: التذكر: ﴿ ... وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ والتذكر أن يحمل المرء الذهن على استحضار ما كان يعلم، تقول: تذكرت الشيء الفلاني، أي استحضرت في ذهنك ما كنت تعلم قبل ذلك، فيدخل فيه في - بهذا المعنى - ما كنت ناسيا، ويدخل فيه ما لا يجوز أن يغفل المرء عنه؛ لكون العلم به من أهم المهمات.

---

(١) أخرجه مسلم (١/٥٣٦ ، رقم ٧٧٢)، ولفظه (عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ قَالَ: ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُسْتَرْسِلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ).

والقرآن جاء للأمرين معًا ، للتدبر : أي تتبع ظواهر الآيات، ومعرفة مكنوناتها ومعانيها، وما يقرب العبد فيها إلى الله، وما يبعده عن طريقه، وما فيها من أمر ونهي، وما فيها من إيمان واعتقاد، وما فيها من حكمة وموعظة حسنة، وما فيها من أخبار الأمم المعتبر بها ممن آمنوا، أو ممن كفروا وكذبوا، إلى آخر معاني التدبر.

وطبقات العلماء جميعًا قد توالت على كلام الله فلم تصل إلى شيء كبير من المعاني المكنونة التي انبثت في كلام الله جل علا، بل كلٌ حصَّل على حسب فتح الله تعالى له، ولم يُحط بهذا الكلام أحد، ولن يستطع ذلك أحد !

وليس معنى ذلك أن يكف الناس عن التدبر، ولكن ينبغي بذل الوسع في ذلك؛ لأن الذي يقصر في ذلك إنما يقصر في أمرين: **الأول**: أنه يقصر في حق نفسه، لأنه لا يحصل من هذه البركة ما يكون سببًا لأن تتنزل الرحمة، ولا يحصل من هذه البركة تدبرا وذكرى يحصل به الخير في عاجله وآجله، والتقصير **الثاني**: أنه إذا كان على هذا الحال لا يُرجى منه بركة لغيره، إذ كيف لمن لم يحصل بركة لنفسه أن يطلب لغيره البركة، أو أن يكون محلا للبركة بين عباده المؤمنين؟!

قوله: ﴿ ... وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي: وليتذكر أصحاب العقول ما كانوا قد نسوه من علم في هذا الكلام المبارك أو ما غفلوا عنه من علم. فلا ينبغي أن يغفل المرء عن موعظة توقظ في قلبه أوامر الله تعالى، وتقربه إليه، وتفيقه من غفلته وسباته وبعده عن الله جل وعلا.

والتذكر مبني على التدبر، وتلك الدعوة المطلوبة التي يترقى إليها: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فهؤلاء هم الذين يعودون إلى المعاني التي غفلوا عنها، وقست قلوبهم بالبعد عن معرفتها، ولم يقوموا فيها بما عليهم من حق في هذه الآيات الكريمات، لأنه قد قال: ﴿... وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر : ١٣] وقال: ﴿... وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر : ٥٤] فقَصَر الله جل وعلا التذكر في كلامه على أصحاب العقول فقط.

فإذا كان القرآن للتدبر والتذكر، فإن الله قصر ذلك على أهل العقول، أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿... يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ...﴾ [الزمر : ١٨] ، وكلام الله جل وعلا كله أحسن الكلام كما قال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر : ٢٣] ولكن القرآن في أوامره وفي نواهيه، وفيما يقرب إلى الله به، وفيما يقوي القلب ويثبته، ويغذي السير إلى الله جل وعلا ، فيه الحسن والأحسن ليراعي أحوال السائرين إلى الله تعالى.

ولا يكون المرء من أصحاب العقول إلا أن يقوم باتباع الأحسن، وبالتالي تكون الآية فيها تعريض بأنه من لم يتدبر ويتذكر ليس من أصحاب العقول؛ لأنه بذلك يترك بركة القرآن وتذكرته وخشيته وإنابته، لأن قوله: ﴿... وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر : ١٣]، يبين أن المنيبين هم أولو الألباب؛ لأنه قال: ﴿... وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص : ٢٩] ﴿... وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر : ١٣] وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ

﴿مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق : ٨] أي هذا الكتاب تدبره يصل بالمرء إلى حال الإنابة إلى الله تعالى قولا وحالا وعملا.

لذلك كان أول ما تفكر فيه هو أن تحصل بركة هذه الآيات الكريمات، وأن تتذكر ما نسيت من علم كنت قد تعلمه يقربك إلى ربك، وألا تغفل عن علم من علومه التي تكون سبب الذكرى والإنابة والإخبات والخشية كما ذكر الله جل وعلا ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى : ١٠]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ...﴾ [المؤمنون : ٦٨] بهذا الأسلوب الإنكاري وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ [محمد : ٢٤] وقال: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه : ٣]. فإذا لم تكن كذلك فلست ممن يخشون الله جل وعلا، ولست من المنيبين إليه، ولست من أولي الألباب، الذين ذكرهم الله جل وعلا، ولا يتحقق لك حينئذ الخشية التي تريد !

ليس المقصود من هذا الحال أن تعمل مفسرا لكلام الله تعالى، لا، ولكن المقصود الذي ينبغي أن نعلمه: كيف يحصل المرء الرحمة ويحصل البركة بهذا التدبر وبذلك التذكر أي: أن يستحضر ذهنه ما كان يعلمه فنسيه أو غفل عنه، ولم يكن على ذهنه وباله حاضرا، يرفع أمره، ويعلي ذكره، ويبين حاله مع ربه، ويصحح طريقه، ويرشد سيره، ويقوي قلبه إلى آخر ما يكون سببًا لثبات المؤمنين، وسببًا لتنزل الرحمة عليهم.

الاستشفاء بكلام الله تعالى

ويرتبط بقضية تحصيل البركة قضية الاستشفاء بكلام الله تعالى. فقد جعل الله هذا القرآن شفاء، وقد علمت - أيها المسكين - من عللك وأمراضك الشيء الكثير، الذي تود أن يشفيك الله منه؛ وبركة القرآن هي الدواء الناجع، وهي الشفاء القاطع لهذه الأمراض والعلل، والمطلوب منك أن تضع مراهم الشفاء على مواضع العلل التي في نفسك، لتداويها وتستشفي منها

فكل آية - كما ذكر الرب جل وعلا - فيها من الخير والبركة، ولا شك أن أمراضك وعللك لن تخرج عن آيات القرآن، فآيات القرآن في بركتها، وشفائها، وهدايتها، ونورها، وضيائها، وفرقانها، وفي أن ترفع عنك ذلك، هي أكثر مما أنت فيه من علل، ولو تدبرت في قليل منها، وقمت بحق هذا القليل من التدبر والتذكر والخشية والدعاء والتقوى والاستعداد، رأيت ذلك الفلاح الذي ذكر الله تعالى، ولكنك أنت المقصر وأنت المفرط في ذلك الدواء الشافي الذي استشفوا به من أمراضهم وعللهم والنور الذي أضاء أبصارهم وبصائرهم وبيوتهم ومساجدهم وقبورهم، كذلك يوم ينقلون إلى الله تعالى، هو تلك الهداية التي إن حلت في قلوبهم فثبتوا على طريق الله.

عندما يتساءل المرء ما السبب في أنه يتراجع في طريق الله تعالى، وأنه قد يظلم عليه الطريق إلى الله، أو قد يخرج عليه قطاع الطرق من الشيطان والنفس والهوى فيقطعون عليه طريقه إلى الله، فعندما يظلم الطريق إذا به يتعثر في طريقه، لأنه قد خَفَت الإيمان وقل ضوءه

وسراجه فصار المرء يسير في الظلام ! ولا ينير لك هذا الطريق ولا يحفظك فيه ولا يشفيك من أمراض الشهوات والشبهات والعلل التي ارتكبتها والتي ركبت فيك، لا يشفيك من ذلك كله إلا ذلك القرآن فإذا بك تسير في النور إلى الله تعالى وتسير قويًّا بهذا الكتاب، وتستطيع أن تقطع المسافة إلى الله ويحفظك فيه فلا يهمك ما يعترضك من قواطع هذا الطريق. وكذلك إن مرضت وتعبت وأصاب قلبك الأمراض والعلل إذا بهذا القرآن يشفيك منها حتى تصل سالماً إلى الله جل وعلا.

فكلما ابتدأت التدبر استكمل طريقك، فإن لم تحصل بركة التدبر حصلت بركة التلاوة، إلى أن يُفتح عليك، ولكن في نفس الوقت لا بد أن تفكر في تلك العلل التي تمنعك عن مواصلة هذا التدبر وذلك التفكر، إن استشفيت بالقرآن دلك الله عليها ببركته، وأعانك عليها سبحانه وتعالى برحمته، وقواك على الاتصاف منها بمدده وقوته.

قم بالقرآن لتحصيل البركة، وقِف على باب الله تعالى مفتقرًا إلى أن تتنزل عليك من الله بركته، ولو جزء يسير، فاليسير منه كثير، والقليل منه ليس قليل، بل هو كثير أيضًا، وإن تعرضت له فإنك قد تعرضت حينئذ لذلك المعنى الذي يكون سبب نجاتك وبركتك.

فإذا وقفت بالافتقار إلى الله، وبالتضرع إليه، ووقفت وقفة المريض الفقير المشتت الذي لا باب له ولا سكة له سوى الله تعالى، تتضرع إليه، وتتوسل إليه، وترجوه، وتستعطفه، وتتحنن إليه، وتدعوه، وتتملقه، وتقول: أي رب أي رب! حتى يفتح عليك شيئا من ذلك.

الفصل الثاني:

نور القرآن الكريم

نبدأ الكلام عن نور القرآن، لنشير كيف أن نور القرآن مدد من نور الله تعالى، وكيف أن الله جعل هذا النور سببًا لأن يكون المؤمنون على هذا الحال من النور في الحياة الدنيا وكذلك عند قيام الساعة وعند لقاء الله رب العالمين.

ذكر الرب جل وعلا في أول ما ذكر قوله: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء : ١٧٤] والبرهان هو دلائل النبوة وحججها وحجج الدين والإيمان التي بينها الله تعالى ووضحها للخلق؛ حتى يؤمنوا بالله وبرسوله وبالميعاد الذي يلقون الله فيه.

وقوله: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ يدل على علوه وعلى وضوحه أشد الوضوح؛ لأنه عندما يقول : أنزلنا، أي من ذلك العالم العلوي الذي كان فيه القرآن قبل أن ينزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم فدل على شرفه وارتفاعه، ثم بعد ذلك كان مبينا، فدل ذلك على وضوحه وتبيينه، وكلما أخذ المرء من هذا النور المبين أخذ في الاقتراب من ربه.

والتدبر في ذلك المعنى يحمل المرء على التساؤل: **قد أنزل الله لك نورًا مبينًا، فما نصيبك من هذا النور**؟ وما بالك لا تأخذ هذا النور وتستبين به ويتضح لك طريقك بالسير فيه؟! لماذا تتأخر في الأخذ به؛ حتى يكون لك نور من نور الله تعالى، حتى تستطيع الثبات

به في الدنيا، وأن يكون لك نور يقودك إلى الجنة في الآخرة؟ فمن أخذ من هذا النور، أخذ به إيمانًا ومعرفة بالله ومحبة له وقيامًا بأمره وشرعه وأخذ من تعاليمه وآدابه وأخلاقه والدعوة إليه ومحبة أهله والقيام على مصالح الدين وبذل النفس والمال، فكلما ازداد المرء من أخذه من هذا النور الذي أنزل الله تعالى ازداد نوره في الدنيا وارتفعت درجته، وكذلك في الآخرة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم ... ﴾ [الحديد : ١٢].

فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء : ١٧٤] فمن لم يأخذ بهذا النور فبماذا سيأتي يوم القيامة؟ يومها يكون الناس في الظلمة دون الجسر، ثم يُعطى كل أحد نوره على قدر هذا النور المبين الذي أخذه في الدنيا، فمنهم من نوره كنور الشمس، ومن نوره كنور الكوكب الدري، إلى أن يصل الحال إلى من نوره على قدر إبهام رجله، يضيء مرة ويطفئ مرة، وهو يسير على الصراط، والأنبياء على حافتي الصراط يقولون: يا رب سلم يا رب سلم.

وقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ ... ﴾ [الحديد : ١٢]، معنى: (وَبِأَيْمَٰنِهِم) فيه قولان لأهل العلم: الأول: أن النور بين أيديهم وهم يسيرون إلى الله وعن أيمانهم نور ، والتفسير الثاني: أنهم قد أخذوا صحائفهم ووقفوا دون الجسر ليمر كل أحد على قدر ما في صحيفته من عمل، قد بيض الله به وجهه أو قد سود الله به وجهه، أو كان بين بين، على حسب عمله في الدنيا، لذلك يكون معنى : ﴿ ... وَبِأَيْمَٰنِهِم ...﴾ أي: وبأيمانهم صحائفهم التي فيها درجاتهم التي بها يمرون على

الصراط، فتكون ﴿... بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ...﴾ لهؤلاء الفائزين الذين تزودوا بهذا النور المبين في الدنيا فكان هو قائدهم الذي يأخذه بأيديهم حتى يدخلوا الجنة.

وبمقدار النور الذي أعطوا تتفاوت درجاتهم في الجنة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن في الجنة مائة درجة**) [٤] وهذه الدرجات في الجنة جُعلت منها درجات للشهداء كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿... وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ...﴾[الحديد : ١٩].

لذلك كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يمني نورًا، وعن شمالي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا**)[٥]، فكل هذا الذي ذكر النبي قد تحقق له؛ لكونه دعوته مستجابة صلى الله

(٤) أخرجه البخاري (١٠٢٨/٣ ، رقم ٢٦٣٧) ، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٢٧/٥ ، رقم ٥٩٥٧) ، ومسلم (٥٢٩/١ ، رقم ٧٦٣)، ولفظه (ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا وَفَوْقِي نُورًا وَتَحْتِي نُورًا وَأَمَامِي نُورًا وَخَلْفِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا).

عليه وسلم، فكان كله نورًا ، ومن تبعه أخذ بمقدار هذا النور من نور النبي الذي قد أخذه من نور الله تعالى.

وتستكمل الآيات مواقف الناس ومنازلهم يوم القيامة، يقول سبحانه: ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ...** ﴾ [الحديد : ١٣] هم في الظلمة، ويريدون أن يسيروا وراء المؤمنين ليقتبسوا من نورهم ﴿ ... **قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ...** ﴾ [الحديد : ١٣] . وفيها أيضا قولان لأهل العلم، **الأول**: أن تكون ﴿ ... **ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ...** ﴾ على سبيل المخادعة التي قال الله فيها ﴿ ... **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ...** ﴾ [النساء : ١٤٢] فيرجعون إلى مكان النور الذي وُزِّعَ فلا يجدون شيئا، كما كانوا يسخرون في الدنيا من المؤمنين سخر الله سبحانه وتعالى منهم.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿ ... **ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ...** ﴾ هو قول المؤمنين ، أي : ارجعوا هل تجدون نورا أو لا؟ لن تجدوا، ارجعوا قد تجدوا، لا يوجد نور ولا شيء. وأهل الإيمان تخوفهم هذه الآية؛ لأنها تحكي سيرة المنافقين، ومن قل إيمانه وظهر شيء من نفاقه، فلا يأمن أن يكون له شيء من هذه الظلمة، وإن كان مؤمنًا فله شيء من النور لا شك كما جاءت بذلك أصول الشريعة.

ونشير سريعا إلى الآية الثانية في نور الآخرة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**

وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم : ٨]، وما يخيف في هذه الآية أنها ذكرت أن الذين لا يخزيهم الله يوم القيامة هم هؤلاء الذين حصلوا ذلك النور في الدنيا، فإذا ما قصر المرء ومنعه الشيطان في الدنيا من تحصيل هذا النور المبين، إذا به يخفت نوره في الآخرة، وإذا خفت نوره في الآخرة فكيف يكون مروره على الصراط في الظلمات؟ وكيف يكون قيامه في تلك الأهوال والكربات؟ لا شك أنه لا يكون كمثل هذا الذي له نور عظيم أو اكتمل له شيء من النور أو زاده الله نورا، أو أكمل الله له النور. ذلك يدفع المؤمنين اليوم ليسعوا إلى تحصيل ذلك النور.

الآية التالية في وصف القرآن بالنور في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة : ١٥- ١٦] والآية شاملة لكل ما أكرم الله تعالى به أهل الإيمان من نور لهدايتهم، فبعض المفسرين يقول: قد جاءكم من الله نور أي: النبي صلى الله عليه وسلم، وجمهورهم على أنه قد جاءكم من الله نور : أي هو الكتاب المبين، وهذا الكتاب ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ...﴾ ورضوانه أي من ابتغى مرضاته، وهي تعود على الكتاب،فيكون المعنى: يهدي به الله من اتبع مراضي هذا القرآن التي هي مراضي الرب سبحانه وتعالى، فيهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الخوف، والحيرة، والضلال، والجهل، ومن كل ما يمكن أن يكون سببا لعطبهم في الدنيا.

وقد امتلأ المؤمنون اليوم بهذه المصائب: بالتردد وبالخوف وبالشك، سواء فيما هم فيه من دين، أو فيما هم فيه من شهوات، أو فيما هم فيه من شبهات، أو فيما هم فيه من خوف على دنيا ومستقبل، أو ما هم فيه من عدم الرضا والاطمئنان إلى الله تعالى.

إذا بالله يقول: من اتبع رضوانه هداه سبل السلام، صار آمنًا ، صار مطمئنًا، صار لا يخاف شيئًا، بل صار راكنًا إلى الله تعالى، معتمدًا عليه، واثقًا فيه، قد ألقى الله تعالى عليه هذا الأمن، وهذه الطمأنينة، وأنزل الله تعالى عليه هذه السكينة، وأمده بتلك الرحمة، ونشر عليه تلك البركة. والمؤمنون في غفلة عن هذا، يريدون سلامة وأمنا في غير مراضي الله، بل قد قصروا فيما يرضي الله سبحانه وتعالى عنهم حتى وصلنا إلى هذه الحالة !

المخرج من ذلك: ﴿ ... وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ سواء من ظلمات الشك والحيرة إلى الثبات والإيمان، من ظلمات الجهل إلى نور العلم، من ظلمات المعصية والفسق والبعد إلى نور الطاعة والإقبال على الله تعالى، من ظلمات القسوة والغفلة إلى نور الذكر، وإلى نور اللين والسهولة والمحبة، من ظلمات البعد والجفاء إلى نور القرب والاقتراب من الله جل وعلا، فيكون ذلك النور واتباع رضوانه سببا إلى هدايتهم إلى الطريق المستقيم.

وقد رأينا هذا الحال العجيب الذي نزل فيه القرآن ونزل به، واتبعه أصحاب النبي رضوان الله عليهم فكانوا نورا في هذه الدنيا، وكان لهم نور في قبورهم، وكانوا نورا يوم يقوم الناس في الظلمة لله تعالى، والمؤمنون لا بد أن تخفق أفئدتهم وقلوبهم إلى تحصيل شيئًا من ذلك، وأن يكونوا متطلعين إليه، كلٌ يرنو إلى أن يكون من هؤلاء الذين أيدهم الله

وثبتهم بنوره وهداهم طريق وبلغهم رضوانه، إذ اتبعوا رضوان الله في الدنيا بلغوا رضوان الله في الآخرة، ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة : ٧٢].

وما زالت الآيات تترى في وصف القرآن بالنور، يقول الرب جل وعلا في هذه الآية: ﴿... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف : ١٥٧]. وهذه الآية تبين لك مزيدًا من هذا النور، وتوضح لك أشياء جديدة في هذا الطريق، يظهر بها هذا النور. فإذا كنت لم تثق من قبل في عاقبة هذا النور لتكون قاطعة لك في تصورك وفهمك، ثم في إقبالك وسعيك وسرعة عملك بهذا المعنى، إذا بهذه الآية تبين أن من اتبع هذا النور فهو المفلح، لأن معنى الآية : لا فلاح لمن لم يتبع هذا النور.

وذلك لأن هذه الآية بالذات جاءت في معرض الكلام عن اليهود والنصارى في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء إن كانوا قد آمنوا برسلهم من قبل فإن فلاحهم لا يكون إلا باتباع الرسول. وفي ذلك تفضيل لهذه الأمة المرحومة بأن فلاحهم غير فلاح غيرهم، لأن فلاحهم هو الفلاح الكامل؛ لأنهم اتبعوا هذا النبي وأيدوه وعزروه ونصروه صلى الله عليه وسلم والتزاموا سنته وهديه ، وهذه أولى أسباب الفلاح.

والثانية كما جاء في بقية الآية: ﴿... وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ...﴾ فكان الأمران سبب الفلاح الذي لا فلاح يدانيه، والذي لا يمكن في الادعاء المبالغ فيه أن نسمي غيره فلاحا بجواره، بل هذا هو الفلاح الذي لا يطلق على غيره فلاح إذا قورن به.

والمعنى: أن هذا القرآن نور، وأن اتباع هذا النور هو الفلاح، والاتباع أي العمل بما فيه، أي أن يمشي وراءه متبعا له في كل شيء، لا يخرج عنه قيد أنملة، أي يلزم تعاليمه وآدابه وأخلاقه وأوامره، وينتهي عن نواهيه، إلى آخر ما ذكر الله تعالى مما يبين أن هذا متبع لنوره سبحانه وتعالى لا يخرج عنه.

وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم: أي أن يكون النبي معززًا منك مكرمًا مبجلاً محترمًا في أعلى شئون الارتفاع عند أهل الإيمان، وأن ينصره في كل وقت وحين، سواء كان حيًّا أو ميتًا. ففي حياته بأن يكون المؤمن فداء له بنفسه وماله وولده، ولا يؤمن حتى يكون النبي أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، فضلاً عن ماله وأرضه وداره وغيرها من متاع الدنيا. والنصر بعد مماته بنصر سنته، ورفع رايته، ونشر دينه صلى الله عليه وسلم، والتزام هديه، والإقبال على تعلم هذا الدين وتعليمه والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام على مصالح المسلمين واتباع النبي.

والفلاح هو البقاء والظفر في الدنيا وفي الآخرة، وكلما قللت من اتباع النور قل فلاحك في الدنيا والآخرة. فإذا كان المرء- كما يقال باللفظ العامي -: ليس فالحًا في الدنيا ولا في الآخرة، فقد جاءك الحل إذن، قد جاءك الفلاح الذي تبتغي، الفلاح الذي قد يئست أن يتحقق لك، قد جاءك طريقه وتبين لك من الله جل وعلا كيف تقوم به وتجاهد نفسك عليه، قد جاءك هذا الفلاح بإيمانك بالنبي وتعزيزه وتوقيره، ثم اتباع هذا النور الذي أنزل معه صلى الله عليه وآله وسلم.

عاود المؤمنون إذن أنفسهم مرة أخرى، وحاولوا أن يحكموا عقولهم في ما علموا من مطلوب الآيات، بمعنى أن يحكموا هذا العقل في تلك الأحوال السيئة التي هم فيها، كيف وصلوا إليها؟ وكيف لم ينتهوا عنها؟ وكيف لم يتأثروا بالموعظة في القيام بها؟ وكيف يفضلون الفاني الزائل على هذا الباقي الدائم من فلاحهم وظفرهم؟ كيف يفضلون من يأتي لهم بالدنيا والآخرة على من يضيع عليهم الدنيا والآخرة؟

الآية الرابعة في نفس السياق الذي يبين كون القرآن نورا، وهي قوله سبحانه وتعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ٥٢- ٥٣] ، وقد سمى الله الوحي روحا؛ لأنه تتوقف عليه الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، ثم بين هذا الحال الذي ينبغي أن تأخذه بجد واهتمام وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿... وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ...﴾ فقط من نشاء من عبادنا !

وهذه المشيئة مشيئة الخاصة، إذ أن المشيئة العامة داخل فيها المؤمنون كلهم، والمخيف أن يقصر المرء فلا يدخل في هذه المشيئة الخاصة بسبب تقصيره. بمعنى أن المرء إذا آثر التقصير والتفريط، والظلم والجهل، والبغي والعدوان، وترك تعاليم النبي ونصرته، وآثر ذلك كله على هذا النور الذي آتاه، فإنه حينئذ لم يشأ أن يكون ممن شاء الله لهم هذه الهداية، فمُنع إياها، كما قال الله تعالى: ﴿... فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ...﴾ [الصف : ٥]، هم أرادوا التقصير والتفريط في سنته ومحبته ليأخذوا عقاب ذلك جزاء وفاقا.

فعندما يقول المرء: أنا لست فالحا في الدنيا ولا في الآخرة ولا أجد هذا النور الذي تتكلمون عنه، وأنا في حيرة وشك، وفي تردد وظلمة، وفي شبهات وشهوات، وفي مصائب وآفات، وكلما خرجت من مصيبة دخلت في أخرى، وكلما خرجت من معصية حننت إليها وعدت له، يقال لك: ﴿ ... وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ...﴾ لم تزل بعد في هذا البعد الذي لم يشأ الله لك أن تخرج منه إلى القرب إليه سبحانه وتعالى.

فإن أردت أيها المسكين أن تأخذ من هذا النور لتهتدي به فطريقك طريق النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو الهادي، وهي الهداية الموسومة بالتبيين ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى : ٥٢] تبين وتوضح لك هذا الطريق الذي من سار فيه، سار وراء إمام النور والهدى صلى الله عليه وسلم، حتى يصل إلى صراط الله تعالى، ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى٥٣] .

فالأمور تصير إليه جل وعلا، فمن شاء أن يضله أضله لكونه لا يستحق الهداية، إذ بين له النبي الطريق فزاغ عنه ولم يهتد به ، ومن أراد الله له الهداية أعانه عليها ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧].

والآية التالية في هذا النور هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن : ٨] وهو سياق جديد مختلف عن السياقات السابقة يبين أن الذي يمشي على هذا الصراط، فإن الله خبير به، مطلع عليه، فإن كان يلتزم به في الظاهر ويخالفه في الباطن يخوفه فيقول: ﴿ ...وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

[التغابن : ٨] فلا يظنن أحد أنه بما أبدى وبما أخفى .. أنه أخفى شيئًا عن ربه، أو أخفى شيئًا لا يطلع عليه ربه، كلا، أنت أمام ربك ظاهرًا وباطنًا سواء، ليس عنده منك ظاهر ولا باطن، بل هو مطلع عليك سبحانه وتعالى في كل أحوالك، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فخذ حذرك من هذا الحال، وخذ من النور ما يكون سببًا لنور الباطن الذي يظهر على الظاهر، وخذ ما يكون سببًا لنور الباطن يزيدك في السير، ويمكن أن يكون سببًا لدخول هذا النور من الظاهر إلى الباطن، فكلما ازددت الظاهر من النور فلعله يؤثر في باطنك، وكلما أخذت من النور الباطن فإنه يظهر على جوارحك، إن لم يظهر عليك شيء فعليك أن تعاود الأخذ من هذا النور.

علمنا أن القرآن هو النور الذي يجب على المؤمنين أن يأخذوا في أمور خاصتهم وأمور عامتهم وأمور دعوتهم، وننتقل إلى المعنى المرتبط بذلك في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ...﴾ [الأحزاب : ٤٣] والصلاة من الله جل وعلا الثناء ومن الملائكة الدعاء، كما بين القرآن.

فالصلاة من الله ثناء على المؤمنين، وإذا أثنى عليهم رفع درجتهم، وأعلى منزلتهم، وذكرهم في الملأ الأعلى، وإذا ذكرهم وأثنى عليهم دل على أنهم صاروا أهلا للثناء، وهي مشكلتنا اليوم، لأنه إذا كان الله يصلي عليهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فما بالهم في حالك الظلمات؟! فما بالهم متحيرين؟! فما بالهم على هذا الحال السيئ؟!

كلام الله صادق لا خلف له، وإنما النقص الذي يقع في هذه المعاني إنما هو من الإنسان، لذلك لما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ... يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ...﴾ [النور : ٣٥] أي: من يستحق من أهل الإيمان أو من أهل الكفر أن يهديه الله. وأهل الكفر إن أخرجهم من الظلمات إلى النور فقد فازوا فوزًا عظيمًا، فقد خرجوا من الشرك إلى الإسلام، وأهل الإيمان درجات عند الله في نورهم، فمنهم من يكون نوره على إبهام قدمه، ومنهم نوره كنور الكوكب الدري، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث، فصاروا درجات.

فإذا رأيت أيها المسكين أن نصيبك قليل من هذا النور، فذلك لأن الله لم يشاء لأمثالك أن يحصلوا أكثر مما هم عليه؛ لأنك لا تستحق ذلك، لا بذلاً ولا جهدًا ولا تفرغًا ولا همًّا ولا حزنًا على ترك ذلك كله، فكيف تحصل من هذا النور الذي بشر به المولى عباده المتقين بأن يحصلوه؟! تريد أن تحصل منه ما لم تبذل له شيئًا، بل لم تحزن على أنك قد أضعت كل شيء في مقابل أن تحصل هذا الشيء العظيم؟ بل إنك قدمت الزائل على تحصيل هذا النور، كيف تقدم ذلك كله وتريد أن تحصل نور الله؟! كيف تهرب من مسجده وبيته لئلا تحصل هذا النور وتريد أن تحصله؟! يقول: سأحصله في الطريق، سأقرأ البقرة وآل عمران في الطريق، إن شاء الله عندما أصل إلى البيت سأقرأ ! وعندما يصل إلى البيت يمنعه الشيطان، وينشغل، ويأكل وينام، وتضيع هذه العهود وتلك المواثيق مع الله تعالى لأنه قدم كل ذلك على النور، ثم يريد أن يستنير طريقه، وأن يحصل نور الله جل وعلا، وأن ينير قلبه وبدنه، وأن يأخذ حظه في الدنيا قبل حظه في الآخرة!

ثم إذا رأيت نفسك غير مهتد لهذا النور، وغير قريب منه، وغير محصل - بالتالي - لشيء يكون سبب نورك ورحمتك، فينبغي أن تشعر بالحزن والضيق والنكد من أنك الله قد حرمك ذلك، مع أنه القائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] إذن لا بد وأن يصلي عليكم هو وملائكته، فلما لم يصل لم تستحقوا هذه الصلاة، ولما لم تستحقوا هذه الصلاة حرمتم هذا النور الذي بين الله تعالى، ومن حرم هذا النور بقي في ظلام الجهل، بقي في ظلام الغفلة، بقي في ظلام البعد، بقي في ظلام المعصية، بقي في ظلام الاحتجاب عن الله تعالى، بقي في ظلام المادة والشهوات، بقي في تلك الظلمات التي تعلو هذا القلب فلا يستنير بنور الله جل وعلا.

المعنى التالي هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] وهذه الآية تبين أنه لا يتحقق نور الرب جل وعلا في قلب المرء وأحواله إلا أن يشرح الله صدره للإسلام، و(على) تبين هذا التمكن من هذا النور الذي أمده الله تعالى به. وإذا عكسنا الكلام قلنا: لا يشرح الله تعالى صدره للإسلام إلا وهو على نور من ربه، فكان النور سببا لمزيد الشرح وكان شرح الصدر سببا لمزيد النور، وهكذا هي رحمة الله تعالى.

وهذه الآية يسبقها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر : ١٩] فكأن المعنى: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه

كمن حقت عليه كلمة العذاب فهو في الظلمة في ظلمة الكفر؟! فهذا هو السياق ، ويمكن أيضًا أن تحمل على قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ** ...﴾ [الزمر : ٢٢]، ومن هذه الوجهة: أن من شرح الله صدره للإسلام ليس كهؤلاء القساة، بل هؤلاء لهم الويل، وليس كهؤلاء الكفرة الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

وانظر إلى ما ينبغي أن تكون عليه من تطلعك إلى هذا الشرح من الله، أن يشرح الله صدرك للإسلام، المسلمون يشرح الله تعالى صدرهم بزيادة الشرح، والكافرون يشرحه بأن يدخلوا الإيمان. يعني إذا كنت أيها المؤمن قد آمنت بالله فلا بد أن يصيبك هذا الضيق، الذي يظهر في ضيق النفس، وفي كثرة التنهد كما قال الله تعالى في موسى عليه السلام ﴿ **وَيَضِيقُ صَدْرِى** ...﴾ [الشعراء : ١٣]، أي تنضغط آلة التنفس في صدره على قلبه فيضيق هذا الصدر، وكذلك يكثر تنهده، وجمعها الله تعالى في قوله: ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ** ...﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وانظر إلى الضيق والحرج والنكد الذي نعاني منه في الدنيا في أحوالنا مع الله تعالى، وفي أحوال الدنيا، وفي أحوال الدعوة إليه، وفي أحوال علاقات المؤمنين، وعلاقات الكافرين، وفي أحوال البيت والولد، وفي كل الأحوال التي يعاني منها المؤمنون اليوم، كادت أن تنطبق صدروهم من الضيق والنكد لوجود هذه الأحوال السيئة.

ولفظة "شرح" من الألفاظ الرشيقة جدا في القرآن الكريم، فإن الله تعالى لم يقل: أفمن وسع الله صدره مثلا أو كذا أو كذا، وإنما عبر بـ(شرح) ليبين ذلك السرور، وذلك الفرح بهذا الإسلام الذي قد تقبله العقل وأحبه القلب فدخل فيه.

هل وصل المرء إلى ذلك فشرح صدره أو لا، أو أنه لا يزال يشعر بهذا الضيق، وهذا التردد، وهذا النكد، وكلما حل عليه شيء من أحوال الدنيا والآخرة وجدته ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، لا يستطيع أن يتنفس، وهذا يدل على ما هو فيه من هم ونكد، لذلك بين الله جل وعلا بهذا النور كيف وسع هذه الصدور، يقول: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ...﴾ [الزمر : ٢٢] أي تقبل الإسلام ومحبته بعقله فشرح الله صدره له، كيف شرح صدره؟ قال: لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه ومبادئه هذه تجعل هذا المسلم فرحا بتلك الحالة الجديدة التي صار إليها. فصار مسرورًا برضا الله تعالى عنه جل وعلا، لماذا؟ لأنه هذا المرء المسلم الذي قد شُرح صدره للإسلام ظهرت عليه هذه العلامات الجميلة التي تبين شرح الصدر من الاطمئنان بالله تعالى، من الرضا بما يقع من الله جل وعلا، إن أصابه حزن علم قرب زواله، ولم ييأس من تغير حاله، وأيقن أن الله تعالى يثيبه على تحمله وصبره، وإن أصابته سراء شكر وحمد، وترقب المزيد من الله جل وعلا، وكذلك توسعت أحواله: فقرأ القرآن، ونطق عن الحكمة، واتسم بالأخلاق العالية، وسلامة الصدر، فصار المسلمون كلهم له إخوة، وخرج من قلبه الحقد والكراهية والحسد للمؤمنين، فلم يصل قلبه إلى هذا الحال الذي يضيق به، بل قد انشرح بكل تعاليم الدين والإسلام وفرح بها ورضي بها.

فإذا أصابته مصيبة، استقبل المصائب بصدر رحب، يعلم أنه على الحق، وأن صبره وتحمله لا يضيع عند الله، بل هو ينتظر رحمة الله، وكذلك شرح صدره فزالت حيرته وتردده، وخواطره السيئة، وبعدت عنه - كلما استضاء قلبه - بعدت عنه الشبهات والشهوات ومضلات الفتن، بعدت عنه وساوس الشيطان، ووساوس النفس والهوى، وصار منيرا إلى هذه الدرجة التي يقال عنه: إنه مطمئن لربه، إنه قد شرح صدره، إنه مسرور بمعرفته بالله، إنه مقبل عليه، مطمئن ليومه، مطمئن لغده، يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه قد انشرح بتعاليم ربه، واتباع سنة نبيه إلى هذه الدرجة التي صار بها على نور من ربه.

هل يستوي مع من قسا قلبه وأظلم، وزادت غفلته، وبَعُدَ عن ربه، ونسي لقائه سبحانه وتعالى، وقصر في خدمته، وقصر في القيام بحقه، وفرط في اتباع سنة نبيه، وقدم شهواته ودنياه عليه؟ كلا.

هو سبحانه يريدك نورًا في سمعك وبصرك، ويريدك نورًا في قلبك وبدنك، ويريدك نورًا في عملك وسعيك، ويريدك نورا في قولك وتصرفك، ويريدك نورًا في خُلقك وتعاليمك، ويريدك نورًا في كل شيء، وأنت تأبى ذلك ولا تريده ! يريدك لك نورًا تستطيع أن تواصل به السير إليه وأنت تريد أن تسير في الظلمة، يريدك نورا تهتدي به إليه وأنت تأبى إلا أن تقف .. لا تتحرك .. وإن تحركت رجعت مرة أخرى، وهكذا، كيف تنتظر إذن من الله ذلك النور؟!

إذا رأيت نفسك حزينًا لتقصيرك في تحصيل هذا النور، ولبقاء ترددك وحيرتك في الطريق إلى الله تعالى، ورأيت نفسك حزينا في ألا يستنير قلبك، وأن تستنير أعضاؤك وبدنك، وأن يستنير طريقك إلى الله تعالى، ورأيت نفسك حزينًا لأن ما قد أخذت من هذا النور لا يكفي لأن يضيء لك طريقك إلى الله تعالى على صراطه يوم يقول الأنبياء: يا رب سلم! يا رب سلم!

عندما رأيت نفسك حزينًا علمت أنك قد قدمت أشياء كثيرة على تحصيل هذا النور، قدمت أهلك ومالك، وشهواتك وولدك، قدمت طعامك وشرابك، قدمت انشغالك بما أنت فيه، قدمت الدنيا وتحصيلها والتوسع فيها.

قدمت ما أنت فيه من أشغال أو سفر أو غيره، قدمت ذلك كله على أن تحصل جزءا من هذا النور، وعلى أن تحصل بركة هذا النور ورحمة هذا النور، وحينئذ تذكرت قول الله تعالى: ﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝﴾ [النور : ٤٠].

فأطبق عليك الحزن حينئذ، وعلمت أن ما حصلت في كلا الأمرين من الدنيا وما تريدها إلى جانب تحصيل شيء من هذا النور كلا شيء؛ لأنك قد أضعت عمرك ووقتك وجهدك ومالك وبدنك وما زال طريقك مظلما أو فيه ظلمة، وما زال قلبك صدأ يعلوه الران، وتكثر عليه المعاصي، ولم يُنر ويسْتنر بنور الله تعالى، الذي قال فيه النبي صلى الله

عليه وسلم: (**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يمني نورًا، وعن شمالي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا**)[٦].

علمت حينئذ أنك قدمت الفاني على الباقي، قدمت حزنك وضيق صدرك على انشراحك بنور الله تعالى، على تحصيلك لأسباب فوزك في الأولى والآخرة، قدمت ذلك كله على أن تكون فرحا بربك، مسرورا به، سائرا في طريق النور إليه سبحانه وتعالى، ما الذي حملك على ذلك إذن؟

هذه المسألة من أهم المسائل التي ينبغي النظر فيها : كيف قدمت هذه الظلمات لتبقى حاجبة لك عن الله تعالى، مانعة لك من أن يستنير قلبك وفؤادك بمحبته ومعرفته والقرب إليه والتعلق به سبحانه وتعالى، وأن يستنير قلبك فيقوى على ما أنت فيه من الحيرة والتردد، وما أنت فيه من الضعف والخيبة في دعوتك وقيامك بأمر الله تعالى، وعلى أن تحصل تلك البركة في أعمال الآخرة ، وكذلك في أمور الدنيا التي تخاف عليها.

عدت إذن وأنت تود أن تكون فرحا بربك مسرورا به، ترى قرة عينك، وطمأنينة نفسك، واستبشار قلبك في نوره ومعرفته والإقبال عليه، وفي التزود من هذا القرآن الذي كان بركة العالمين، ولولا هذا الوحي من السماء ولولا نزوله إلى الأرض لما انتشرت تلك

---

(٦) أخرجه البخاري (٥/٢٣٢٧ ، رقم ٥٩٥٧) ، ومسلم (١/٥٢٩ ، رقم ٧٦٣)، ولفظه (ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا وَفَوْقِي نُورًا وَتَحْتِي نُورًا وَأَمَامِي نُورًا وَخَلْفِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا).

البركة وتلك الرحمة، وعم نور الله تعالى الكون: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف : ٨].

إذا علمت أنك المفرط في أسباب نجاتك، علمت أنك يجب أن تسارع في تصحيح موقفك من القرآن تصحيحًا لموقفك من ربك سبحانه وتعالى، وإقبالك عليه، ومحبتك له، وإبعادًا لنفسك عما أنت فيه.

عندما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ... كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ [إبراهيم : ١] بيّن سبحانه وتعالى أن هذا الكتاب هو سبب إخراج أولئك من الظلمات إلى النور، باتباعه وتعلمه وتعلميه والاستشفاء به، وبتدبره والإقبال عليه، بالدعوة له ونشره بين العالمين، بإدمانه تلاوة وذكرا وحفظا، بألا يكون للمرء نور ولا ضياء ولا إشراق ولا وحشة إلا أن يزيل ذلك كله فيما بينه وبين كلام الله تعالى - حينئذ يخرج من الظلمات إلى النور، أي يخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم، يخرج من ظلمات الغفلة إلى نور التذكر والإقبال على الله، يخرج من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، يخرج من ظلمات البعد إلى نور الإقبال على الله تعالى، يخرج من هذه الظلمات التي سبّبت له الحيرة والتردد إلى نور الثبات على طريقه، والاستنارة بوحيه سبحانه وتعالى، والاتباع لسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

والملاحظ الآن أن المصائب والشكاوى تكثر من أحوال البيوت والمرأة والأولاد والمصاريف والمذاكرة، وضيق الوقت، وكل ذلك بسبب التقصير في القرآن، لأن البيت

الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره، ويضيق على أهله، وتحضره الشياطين، وتهجره الملائكة، بخلاف البيت يُقرأ فيه القرآن ويُتدبر ويعرف فوائده ويعمل به، فإنه يكون كالمصباح الذي يضيء للناس ويوسع على أهله ويزداد خيره، وتتحول أحوال البيوت إلى أحوال يرى فيه المرء رحمة الله تبارك وتعالى النازلة عليه.

فمصائبنا التي نعاني منها جميعا، قد شرح الله تعالى وبيَّن وأكد ووثق في كتابه أن طريق إزالتها وأن الحل لها: هو كلامه سبحانه وتعالى. وما زال الناس بينهم وبين كلام الله تعالى هذا الحجاب، وما زال بينهم وبين كلام الله تعالى هذا البعد، وما زال بينهم وبين كلام الله تعالى هذا الحرمان، وذلك لأنهم لما قدموا على كلام الله تعالى شيئا آخر .. حرموا كلام الله، لما قدموا على إدمانه وذكره شيئا آخر .. حرموا إدمانه وذكره، لما قدموا الوقت والجهد لشيء آخر على الوقت والجهد له .. حرموا بركته ونوره.

فتلك المصائب تقصيرنا هو السبب فيها، ولو كنا كما كان المؤمنون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهم أسوتنا وقدوتنا- لتغيرت الأحوال، ولاتضح الطريق ولأزيلت هذه الغمم والظلمات والشك والحيرة، ولثبتت هذه القلوب وقويت، ولصارت صلبة في الله تعالى، حية، تتأثر بالموعظة، وتنجع فيها الذكرى، وتحمل المرء عند سماع ذلك عن المسارعة، لا يلوي على شيء حتى يقدم كلام الله على كل شيء.

ونحن نسمع ذلك كله اليوم ثم نقدم ما نحن فيه اليوم على القرآن الكريم، فيقدم المرء ما فيه مرضه وعلته ودائه على ما فيه شفاؤه وفيه فرجه وفيه رحمته، يقدم ما فيه بعده

وتفريطه وتقصيره على ما فيه إقباله على الله ومعرفته به ورحمته له سبحانه وتعالى ! فأي عقل وأي قلب قد اشتركا في إبعاد المرء عن كلام ربه ؟ سبب ذلك كله ﴿... فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ...﴾ [الصف : ٥] فلما اقتصروا على ما هم فيه ما كان الله ليزيدهم سبحانه وتعالى بسبب تقصيرهم، إن الله تعالى لا يفتح على أحد بسبب تقصيره وبسبب تفريطه وبسبب بقائه على ما هو عليه!

كيف تبقى على ما أنت عليه من التقصير وتود أن تكون عالما، وتود أن تكون مقبلا محبا، وتود أن تكون وليًّا تقيًّا، وتود أن تكون داعيًا مخلصًا ؟ ما كان التقصير يومًا سببًا لتحصيل الخير أو لإبعاد الشر، بل كلما ازداد شرًّا كان عاقبة السيئة السيئة بعدها، وإذا ازداد خيرا كانت عاقبة الحسنة الحسنة بعدها، أما أن يريد المرء بالسيئة الحسنة بعدها، فذلك لا عقل فيه ولا شرع وإنما استهزاء بما يحرم الاستهزاء به.

ولما قال المولى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ...﴾ [النور : ٣٥] أي أنه سبحانه وتعالى نورهما، فذاته نور وحجابه نور سبحانه وتعالى، وكل ما حوله قد استنار من نوره؛ العرش والكرسي والسماء والأرض، ويوم القيامة ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ ...﴾[الزمر : ٦٩] ، ولما كان هذا هو نور الله جل فإذا كان المرء على نور من ربه فلا شك أنه على أعظم شيء، فذلك النور من ربه الذي أعطاه إياه سبحانه وتعالى هو الكافي لنجاته في الدنيا والآخرة.

فإذا ما حصلوا شيئًا من هذا النور في الدنيا كان على قدر ما حصلوا حصلوا نور الآخرة الذي به يمرون على الصراط، على قدر ما حصلوا من هذا النور على قدر ما نشروا دعوة الله، وعلى قدر ما حصلوا من هذا النور حصلوا من ترك الظلام والحيرة والتشكك والتردد ووصلوا إلى اليقين، ووصلوا في طريق الله تعالى سالمين إلى ربهم سبحانه وتعالى، قد استنارت قلوبهم وأفئدتهم، واستنارت جوارح، واستنارت بهم الأرض وظهر نورهم في السماء، وما كان ذلك إلا بسبب تنزل السكينة والرحمة التي بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا النور.

فإذا كان القرآن نورًا، فإن الذي أنزله جل وعلا قد وصف نفسه بذلك، قال: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ...﴾ [النور : ٣٥] وأنك عندما علمت ذلك عاهدت الله تعالى على أن تأخذ من هذا النور.

عاهدته فرحًا بما سمعت من آيات النور النازل، وأن الله تعالى قد رحم المؤمنين بهذا النور ﴿ ... يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ...﴾ [الحديد : ٢٨] ، فصرت فرحًا به مسرورًا أن تتنزل عليك الملائكة، مسرورًا أن ترى السكينة وهي تغشاك، مسرورًا أن ترى قلبك وهو مضيء بنور الإيمان، وطريقك تراه كذلك، أو مسرورًا بأن ترى طريقك إلى الله تعالى منيرًا، مسرورًا بأن ترى نفسك قد خرجت من الحيرة والشك والتردد، مسرورًا بأن تجد نفسك وقد ثبتت على طريق الله تعالى تسير إليه، لا تروغ يمنة ولا يسرة، ولا تتقهقر ولا ترجع، رأيت نفسك فرحًا مسرورًا أن كنت في محل عناية الله تعالى بأن

جعلك لك نورًا سبحانه وتعالى، هذا الجزء الأول أنك قد فرحت بفضل الله تعالى ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس : ٥٨] رأيت ذلك، ورأيت نفسك فرحًا هذا الفرح، ومسرورًا هذا السرور، ومنشرحًا هذا الانشراح.

لذلك سمعنا عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (**أيرجع أحدهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا، قال: تلك بشاشة الإيمان إذا خالطت القلوب**) [٧]

أيها المؤمنون المستنيرون بنور الله تعالى .. بنور كتابه، الذين استنارت أعاملهم وأقوالهم وأفعالهم وظواهرهم وبواطنهم بهذا النور، لعلنا قد عاهدنا أنفسنا مرة أخرى، وأكدنا ذلك العهد مع الله جل وعلا، أن نفرح بنوره سبحانه وتعالى، وأن نسير فيه، وأن نخرج عما نحن فيه من ظلمات؛ حتى يتحقق لنا نور الدنيا ونور الآخرة، وحتى نسهم في رفع راية الإسلام، وأن نتحمل تلك المسئولية التي حملها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليهم الدنيا، ونحن قصرنا فوصلنا إلى ما نحن فيه، ولا طريق لنا إلا هذا النور الذي ليستضيء لنا الطريق إلى الله، والدعوة إليه.

---

(٧) أخرجه البخاري (١/٩ ، رقم ٧) ، ومسلم (١٣٩٣/٣ ، رقم ١٧٧٣)، وموضع الشاهد فيه: (وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ وَكَذلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ).

الفصل الثالث:

جرب نفسك مع القرآن

بعدما علم المرء ذلك القدر اليسير من عظمة القرآن وبركته وشفاءه ونوره كان السؤال: ماذا يفعل المرء ليقوم بشيء من هذا التعظيم، ومن هذا التدبر، ومن هذا الاستغناء بالقرآن، ومن هذه البركة التي بينها الله جل وعلا، وبينها النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليتحمل مسئوليته، وليصلح نفسه ولينظف قلبه، ولينير بيته، وليوسع خلقه، وليبارك له في رزقه، وليسارع في دعوته إلى الله تعالى؟ كيف يحصل هذا الفضل من الله تعالى، حتى يرفع هذا البلاء النازل؟ ذلك هو المحك!

إن المرء حال سيره إلى الله تعالى تصيبه العلل والأمراض من الشهوات وحب الدنيا والغفلة وأمراض القلب من الحسد والغل وطول الأمل والكبر ورؤية النفس ومحبة المال والنساء والصور وينطبع في قلبه هذه الآفات وكل ذلك يعيقه أن يكون له ذلك الحال مع القرآن الكريم. فهلا قام المرء المريض باستخدام هذا الدواء أو أنه لا يزال يعافه أو لا يزال لا يلتفت إليه، ويحب أن يظل على ما هو فيه من مرض وعلل وأن يسير في الظلمات لا نور، وفي المرض لا شفاء، وفي الجحيم والشقاء لا رحمة ؟

كان السلف يقولون: إن سمعت شيئًا عن الله تعالى في الموعظة فلا أقل من أن تأخذ بأقل ما يمكن منه حتى تكتب في سلك أصحابه وتأخذ ثوابهم مما سمعت من كلام الله

تعالى، فلا تكون كمن يستمعون القول فلا يتبعون منه شيئًا ، وهذا الحال السيئ الذي وصلنا إليه !

الأمر المطلوب منك اليوم : أن تجرب نفسك أيها المسكين مع القرآن الكريم، أنت حزين لأنك لا تستطيع أن تقوم بما تسمع، ولا أن تجاهد، ووجدت نفسك ضعيفًا هذا الضعف الذي لا تستطيع به أن تقاوم أمراض الشهوة، ومصائب الدنيا وما فيها عن ابتعاد عن الله تعالى، وشغل عن الرب جل وعلا وغفلة عن ذكره وعصيان لأمره ونسيان لآخرته كل ذلك لا تتمكن من إصلاحه، إلا بأن: تجرب نفسك مع كلام الله تعالى!

جرب أن تقرأ وردًا من القرآن لا تفرط فيه أبدا، وسترى بركة الوقت وقوة القلب، وترى كذلك علو الهمة وسترى بركة الله تنزل عليك بقدر ما تبذل؛ لأن هذه البركة مردُها لما تبذل فإن بذلت شيئًا وجدت درجاته على قدر ما بذلت، إن بذلت لتحصل الدرجة العليا لن يحرمك الله تعالى إياها بل سوف تأخذ منها ما تبذله، ولن يحرمك الله تعالى منها.

إذن جرب هذا الورد، جرب هذا الإقبال، جرب هذا التدبر، جرب هذا الإكثار من كلام الله تعالى، ولا تستكثر عليه وقتًا ولا جهدًا، وإن ضاقت بك الدنيا فحينئذ اعلم أن البركة ما زالت فيه وأن الشيطان يريد أن يقطعك عن أن تستكمل ذلك.

ليكن شعارك هذا اليوم من تلك الساعة: هو جرِّب. و ليس مع الله تعالى تجربة، إن الله تعالى إذا قال قولاً فلا خُلف لقوله سبحانه وتعالى ! إن قال أن القرآن نور ورحمة وبركة وشفاء فهو نور ورحمة وبركة وشفاء، ويكون الداء والمرض والعلة منك أنت في عدم

إقبالك عليه، وأنك لا تستحق ما يعطيك منه سبحانه وتعالى، فحُرمت إياه، وأن تأتي باللوم والعتاب والمحاسبة لنفسك على تقصيرها في أعظم أسباب نجاتها.

آليت على نفسك وعاهدت ربك أيها المسكين أن تأخذ في طريق الرحمة والبركة، وأن تأخذ في طريق العون والمدد من الله جل وعلا، وألا تبعد عن طريقه، وآثرت أن تجرب نفسك-إذ أن الله لا يُجرّب فإن قال وقع قوله بلا شك، وإن قال صدق قوله بلا مراء- وتيقنت تمام التيقن أنه مهما حاول الشيطان والنفس والهوى أن يبعدك عن مصلحتك وعن غنى قلبك وغنى نفسك وشفاء مرضك وعللك إلا أن تقف له، وأن تعلم أن كيده ضعيف، وأنه لا يستطيع بفضل الله تعالى وقوته أن يمنعك. إلا أن تكون ضعيفًا إلا الدرجة التي إن قال لك: قف. وقفت! فهذه هي المصيبة أنه يظن أن هذه المعاصي والبدع أكبر من الله تعالى أن يدفعها عنك! كلا إذا لم يدفع عنك الله جل وعلا فمن الذي يدفع عنك؟!

جرب نفسك مع القرآن؛ لتخرج من الضنك الذي أنت فيه في الوقت والجهد وقلة الحيلة وضعف العمل وضعف الإخلاص، لتخرج من هذا الضنك والشقاء. فالقرآن نزلا لئلا تشقى، لترى رحمة ربك جل وعلا؛ في بيتك وولدك ونفسك وعلمك وفهمك وعقلك وما يتعلق بك، جرب بركة القرآن لتعوض ما أنت فيه مما نقصت منه، أنت اليوم ناقص في أعمالك وأحوالك مع الله تعالى، ومتردد في القيام بها، غير ثابت على الاهتمام بتلك الأعمال والتزود منها، تسير شيئا وترجع خطوات، جرب نفسك مع القرآن الكريم لترى هذه الرحمة.

تلك الدعوة إذن: أن تجرب نفسك مع القرآن.لا نقول: جرب نفسك مفسرًا، ولكن **جرب نفسك مرحومًا مباركًا بآياته، تتلوها وتحفظها وتتعلمها، ثم تتدبر معناها، وتتذكر ما نسيت منها**، ثم تأخذ ذلك كله تدعو به ربك، وتتوسل به لأن يغفر ذنبك، وأن يثبت قلبك، وأن يعينك على سيرك إليه سبحانه وتعالى، وأن يرفع به آلامك وعجزك، وأن يداوي به كسلك وبعدك وتفريطك وجفاءك الذي وصلت إليه، إذا أتيت إلى هذا الحال وجدت الشيطان قد اعترض طريقك؛ لئلا تذكر الله، ولئلا تتدبر آياته سبحانه وتعالى، أي لئلا يكون لك القرآن من هذه الوجهة فتتدبره، وتتذكر به ما يكون سبب هذا الحال الحسن مع الله جل وعلا، لتبتدئ به دعوتك وأنت مبارك، فإن ابتدأت دعوتك مباركا ببركته بارك الله لك عليه، باركك الله به، أو بارك لك فيه، أو أن الله جل وعلا بارك لك في غيرك عندما تدعوه إلى الله، وحلت هذه البركة في كل تصرفاتك، وإذا نزلت البركة ونزلت الخشية ونزلت الإنابة تغيرت أحوال الناس مع الله تعالى.

فإذا فتح الله تعالى عليك وعاهدت نفسك أن يكون الكتاب إمامك ، وأن يكون سبب رحمتك وسبب بركتك وعلمت ذلك يقينًا، فلا ينبغي لك أن تخالف هذا المبدأ عندما تصطدم بالواقع !

فإذا وجدت نفسك قد ضاق عليك وقتك وأنت تقرأ القرآن فأغلقت مصحفك وقمت، أو و جدت نفسك وكنت تتلو فيه وتتدبر فإذا بك قد أسرعت في قراءته لتقوم منشغلاً بأمور الدنيا أو بأمر آخر أو بأنك تقوم به ليلاً لتقرأه فإذا بك قد قصرت صلاتك

وقيامك وأسرعت فيها لتنهيه لتقوم إلى غيره ولتهتم بغيره، ولتسارع إلى غيره، فإذا كان كتاب الله مباركًا فما كان ينبغي للمرء أن ينشغل بغيره ! لابد أن تضع ذلك في ذهنك: أنك مهما اشتغلت به حصلت من البركة ومهما قصرت فيه فبقدر ما تقصر، بقدر ما تقل هذه البركة وتقل الرحمة؛ لأنه قال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] فيقوم المرء باتباع هذا الكتاب على رجاء الرحمة كما ذكر الرب سبحانه وتعالى.

فلا تزهد في القرآن ولا يكون القرآن هو أقل الأمور شأنًا عندك، فتترك حزبك وجزأك إذا احتجت لوقته وتفضل أي شيء يَعرض لك على القرآن، فتغلقه وتقتصر على القليل منه لتتفرغ لأشغالك وأعمالك أو ما يهل عليك من الانشغالات والمشاكل ثم لا تعوض ذلك من كلام الله تعالى.

المقبلون على كتاب الله لا يشغلهم عنه شيء، ولا يمنعهم عنه شيء، ولا يجعلهم شيء مقصرين فيه، ولا في تناوله والجلوس إليه أو التأدب بأدبه أو المحبة له، لا يمنعهم شيء من ذلك أبدًا، فهم لا يقدمون عليه شيئًا، ولا يسارعون إلى شيء على حسابه تلاوة وفهماً وتدبرًا وحفظًا وعملاً وتعليماً، وكلما أقبل على الله تعالى أقبل الله عليه، وإذا أقبل على كلامه فتح له طريق الفهم فيه وطريق الرحمة منه، وحصل له فيه بركته ورحمته وهداه وشفاه.

المقصود أن تكون سيرة القرآن -من هذه اللحظة- هي سيرة أهل الإيمان، وأن يكون إدمان قراءته -كما ذكر أهل العلم- هو ديدنهم وأن يكون شغلهم وأن يكون عملهم ومسئوليتهم التي بها يعودون مرة أخرى إلى دينهم القويم وإلى رفع رايته.

وهذا يجرنا إلى شيء مما ينبغي أن نتعامل به مع القرآن الكريم حتى نرى ما كانوا فيه، وما صرنا إليه، وما ينبغي أن نصحح به معاملاتنا مع الله تعالى؛ خوفًا على أنفسنا، وتحملاً لشيء من مسئولية الآخرة، وتحملاً لشيء من مسئولية الدين والدعوة، وتحملاً لشيء من مسئوليات الإصلاح التي أُنيطت بعاتق المؤمنين اليوم، الذين تكاسلوا عن هذه المسئولية، وفي نفس الوقت قد يسّرها الله لهم وأعانهم عليها، وبين لهم طريقها.

الرد على من يقول: من أين الوقت؟

سيقول القائل: من أين الوقت؟ فيقال له: من القرآن نفسه ! من بركته التي ستحل عليك في وقتك وجهدك وفي فهمك وحفظك وفي تلاوتك وترتيلك، من بركته التي ستحل عليك في ما تريده مما تستطيعه لأهلك وولدك وشغلك ومالك ونفسك وصحتك، كل ذلك سترى فيه تلك البركة التي قصرنا فيها.

وكذلك لن يضيع عليك جهد بل سيعوضك الله جهدًا أكبر منه، ولن يضيع عليك مال، بل سيخلف الله عليك ، ولن يضيع عليك ولد وأهل، فإن ذلك كله ينبغي أن ترى فيه البركة إذا أخلصت وبذلت وسعيت كما سعى الصحابة.

إذا لم يكن ذلك صحيحًا فكيف كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يقومون به ؟ كيف نزل عليهم فأخذوا من بركته، فوجدنا بركة الوقت وبركة الجهد وبركة الجهاد والفتح، وفي سنين قصيرة فتحت الدنيا من بركة القرآن الكريم الذي قصر فيه المقصرون، وغفل عنه الغافلون.

ينبغي أن يتعلم المرء كيف يترك تلك الغفلة، وكيف يضحي بوقته وجهده، بل لا تضحية في ذلك؛ إذ المنة لله تعالى، أن يوفقه لشيء من ذلك ويحرم غيره وحينئذ يطلب المرء من ربه جل وعلا بالتضرع والسؤال والإلحاح عليه، بل بالبكاء والندم على ما فات، يطلب من ربه أن يبارك له في القرآن وأن يعوضه ما فاته منه، وأن يرحمه به، وأن يبارك له به، وأن يبارك له فيه، وأن يبارك له عليه، وأن يكون بركة القرآن هي التي يسير في ظلها في كل أعماله وأحواله، لا أن ينقصها أو يتقلل منها أو أن يؤخرها أو أن يسوفها.

والمرء يضيع وقته في توافه الأمور وعندما يأتي لوقت للقرآن يأتيه الشيطان ليقول: ليس عندك وقت، وليس عندك جهد؟! وكأن أحدا لم يقرأ القرآن وهو يقوم بأشغاله في الدنيا، كلا، لقد حدث ذلك وحافظ هؤلاء على القرآن بارك الله لهم بتلك النوايا الحسنة، وإنك مهما جاهدت نفسك مع الله تعالى وابتدأت بشيء - ولو كان يسيرًا - فلعل الله تعالى إن رأى منك هذا الحرص ورأى منك هذا الإقبال ورأى منك هذا الصدق ورأى منك هذا الإخلاص فإن الله تعالى لا يحرمك شيئًا مما تريده، بل إن الله تعالى يزيدك كما قال: ﴿ وَالَّذِينَ

ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧] وهذه هي الهداية والتقوى التي ينبغي أن تعلمها في قضية البركة.

يحكي عن الإمام الشافعي أن أحد أصحابه قال: دخلت عليه فإذا هو فاتح المصحف بين يديه بالليل، ثم قال لي: لقد شغلتم أهل الفقه عن القرآن، إنني لأفتح مصحفي بعد العشاء ما أطبقه إلا مع أذان الفجر .

فما كانوا يخافون حينئذ أن قراءة القرآن هذه سوف تعطلهم عما هم فيه، وسوف تقلل وقتهم، وأنه إذا أراد أن يفعل شيئا خفف ورده من القرآن، ووروده من الصلاة، ووروده من الذكر، ولم يكن الحائط المائل إلا دينه الذي يفرط فيه ويتقلل منه بحجة أن إن أطال الله في عمره، سيفعل ويفعل! من الذي أدارك أن لك عمرا آخر يمكن أن تستدرك فيه شيئا ؟ من الذي دلك على أنه قد بقي لك فيه شيء يمكن أن تفعل فيه شيئا؟

إذن قد تعلمت ألا يمنعك عن ذلك شيء، بل إن ما يمنعك من ذلك ليس فيه خير ولا بركة؛ إذ حرمك هذه البركة وذلك النور؛ فالدنيا والأعمال أو الأولاد والمال والنساء، وكل ذلك الذي يمنعك من القرآن، فإنك ستحصل ما تخاف عليه إذا أقبلت على كتاب الله، ولكن الشيطان قد خوّفك وقطع عليك الطريق، وجعلك تسيء الظن بالله تعالى، أنك إن قضيت وقتك وجهدك في هذه الأحوال اليوم فلن يبقى عندك وقت لتحصل فيه هذه الأعمال وتلك الأشغال، وهذه الأموال والأولاد وغير ذلك، وأنساك أن رحمتك وبركتك

وما تخاف عليه سيكون محفوظا بحفظ الله له، وسيكون موفورًا ببركة الله لك عليه، وسيكون مخلوفًا عليك به، مضاعفًا لك أجره في الدنيا والآخرة.

إذا استغللت الوقت الضيق الذي لا تملك غيره في القرآن وسّع لك فيه، وبورك لك فيه، وإذا استغللته ولم تقم فيه بهذا القرآن ضاق عليك وقتك، وقل فهمك، وساءت أخلاقك، وأظلم قلبك ووجهك، وقلت بركتك وخيرك، ولم يوسع عليك، وأنت الذي أوصلت نفسك إلى ذلك !

أهمية معاهدة النفس بعد المجاهدة

ما أن يرفع المرء راية القرآن وتجربة القرآن حتى يعترضه الشيطان ويقف له؛ ليمنع عنه ذلك الخير وتلك الرحمة. فما أن يرى منك العزم هذا الحال الذي تصلح به نفسك وتقبل به على ربك لا شك أنه سيقطع عليك الطريق إلى الله تعالى، فإلى من يذهب الشيطان؟ أيذهب إلى أصحاب المعاصي ليعطلهم عن السير؟! هم أصلاً متعطلون عن السير إلى الله وليسوا قاصدين طريق الله تعالى وإنما يقصد الشيطان البيت العامر فعندما تحاول السير إلى الله ويعلم حينئذ أنك بدأت السير الصحيح إلى الله تعالى في التعامل مع كتابه، عندها يأتيك الشيطان لتنام وتترك قرآنك، أو ليوسوس لك حال قراءتك وليقلل هذه القراءة ، كأن يقول لك: اقرأ نصف الورد في هذه الليلة وفي الغد تكمل بقية الورد وهكذا حتى يضيع عليك وردك كله، لن يتركك إذن!

فإذا جلست لتتدبر آية أو آيتين أو ثلاثة وفُتح عليك هذا الحال وحاولت السير فيه، قطع الشيطان عليك ذلك؛ لأن هذه سكة النجاة، وسكة الرحمة والبركة والشفاء، سكة النور والضياء والفرقان، فوقف لك الشيطان، فشغلك وشتت ذهنك وقلبك، ويقول لك: وراءك بعض الأشغال، ووراءك الامتحانات، ووراءك هذا السفر، ووراءك هذا الشغل، وعندما تعود وعندما تنتهي من سفرك وعندما تخرج من مرضك وعندما تفعل وعندما تفعل فرغ نفسك أيها المؤمن الكريم لكتاب الله تعالى، فرغ نفسك وقلبك وفرغ جهدك ووقتك، والزم هذا الكتاب لتحل عليك هذه البركات!

لقد أتى الشيطان قطعًا لكل أحد، وقال له هذا القول، فعطله من ناحية عما سمع من موعظة ينبغي أن يسارع إليها، ودل ذلك على أن حله في مشاكله التي هو فيها في أخلاقه وفي ماله وفي نفسه وفي بدنه وصحته وفي ولده وفي بيته وفي دعوته وفي خلقه وفيما هو فيه من أعمال وأشغال حلها في القرآن، وقد جاء الشيطان ليعترض هذا الحل، وليوقفك عنه، فإن لم يستطع أن يمنعك مطلقًا ، فإنه يسوف بك الطريق، يسوف بك ويطول لك الأمل؛ حتى يعجزك ويمنعك ويقطعك عن طريق السير إلى الله تعالى.

هذا ما حدث ويحدث إلى الآن لقد عاهد كل أحد نفسه وربه أنه بعد أن ينتهي من هذه المشاغل سيتفرغ، وتلك لها مسألتان ينبغي النظر فيهما، وهي :

<u>الأولى</u>: أن بركة القرآن الكريم التي نتكلم عليها هي الحل لما هو فيه، يقول: أنا منشغل اليوم بالسفر وبالشغل وبالامتحان وبكذا وكذا، إذن أنت أشد احتياجًا إلى بركة القرآن أيها

الإنسان الفاهم الحاذق - كما يقال- إذن أنت أكثر احتياجًا من غيرك لهذه البركة حتى تنزل عليك فتوسع لك وقتك وجهدك، وتوسع لك فهمك وتبارك لك سعيك، فتفعل في هذه الأيام، وفي ذلك الزمن القليل ما لا تستطيع أن تفعله بغير القرآن في الزمن الطويل الكثير.

الثانية: أنك لا بد وأن تعلم أن بركة القرآن تُحصن. بمعنى أنك إذا أردت أن يبارك لك في وقتك وجهدك وعملك ودعوتك ودينك وسعيك لا بد أن تزيد من قرآنك بكل هذه المعاني التي أشرنا إليها، معاني الدعوة والتدبر والعمل والاتباع والتلاوة والتأدب بهذه الآداب والتذكر، وإلا فلن تحصّل شيئًا.

عندما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بارك للناس سعيهم وبارك عليهم وبارك على من حوله، إذن أنت في هذه الحالة إذا أردت مزيد البركة فعليك بالقرآن، إذا حاولت في أحوالك أن تصلحها وأن تعود إلى بك فعليك بالقرآن، فإن تخففت من القرآن وجاءك الشيطان واعترضك فإنه قد حرمك هذه البركات التي أنت محتاج إليها.

أنت محتاج إلى تلك البركة فكيف تحصلها ؟ أنت تريد أن تشتغل، وأن تنهي أشغالك وأعمالك، وأن تحل مشاكلك ومصائبك كيف تحلها؟ تحلها بالقرآن الكريم، ويأتي لك الشيطان ليعطلك عن هذا الحل ويسوفك عن القيام به حتى تستمر على ما أنت فيه !

فإذا لم تستكمل حينئذ وبعدت عن القرآن ثم حاولت العودة، يكون قلبك قد قسا وزاد بعدك عن كلام الله تعالى بما لا تستطيع الرجوع إليه، وحتى إن رجعت إليه أو سرت فيه كما كنت تسير بسيرك لم تحقق شيئًا، لماذا؟ لأن ما أنت فيه من عمل لم يحقق هذا المزيد، لم

يحقق لك ما تريد، لم يُعنك، فدل على أنك في تحصيلك لهذه البركة لم تحصل تلك البركة التي تعينك على هذه المواصلة ورفع البلاء، بدليل أنك ما زلت فيما أنت فيه لم تكتسب خيرًا أكثر منه ! بل أنك يمكن أن تتراجع عما أنت فيه، إذن فكيف تفك مشاكلك ؟ هذه هي القضية !

تلك القضية تحتاج إلى معاهدة النفس بعد المجاهدة ؛ فلابد في هذه الحالة من أن تعاهد نفسك على تحصيل أقصى ما تستطيع من بركة القرآن، ثم تجاهد نفسك على استكمال السير إلى الله تعالى، وأن تعلم أن تلك المجاهدة لها أنوارها كما وعد ربنا جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، هذه طريق من طرق معية الله لك: أن تسارع في تلك المجاهدة التي تكون سببًا في أن يفتح الله تبارك وتعالى عليك ذلك الفتح الذي تنتظره.

التأدب بآداب تلاوة القرآن

وهي القضية المهمة التي ينبغي أن نفهمها : كيف يتعامل المرء مع القرآن التعامل الذي يُحقق به تلك البركة وذلك النور.

ومدخل هذه المعاملات في كيفية قراءة القرآن هما التدبر والتذكر الذان أشار الله إليهما في بركة القرآن الكريم عندما قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ ﴾ [ص : ٢٩] ؛ إذ إن التدبر يكون لأولي الألباب والتذكر لأهل الإنابة ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝ ﴾ [غافر : ١٣] وهاتان الصفتان إذا لم تتحققا في قراءة المؤمنين اليوم فلن يحصلوا من القرآن تلك البركة والرحمة والنور، الذي به يتأهلون لأن يحصلوا

نصر الله ورحمته وأن تتنزل عليهم حسناته من البركات والرحمات، وغير ذلك مما لا يعطيه إلا الله.

ثم ينبغي أن نعاود النظر في الآداب الظاهرة والباطنة للتلاوة؛ لتحصيل أنوار وبركات القرآن، آداب هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ...﴾ [آل عمران : ١٩١]، أي أن يكونوا مقبلين على ذكر الله جل وعلا في كل أحوالهم، ذلك الإقبال الذي يكون سببا في تنزل الرحمة والسكينة عليهم، وحلول البركة والنور والشفاء.

الآداب الظاهرة

وأول هذه الآداب هو **هيئة القارئ**. فإن كان جائزًا أن يذكر المرء ربه على كل أحواله ولكن تحقق الآثار الضخمة من آثار البركة والنور وغيرها يستوجب على القارئ أن يكون متأدبًا مع القرآن، مطرق الرأس، مستقبل القبلة، على وضوء، يجلس بمفرده كما يجلس بين يدي شيخه على هذه الحالة التي كانوا يذكرونها في التأدب في الجلوس إلى مشايخهم.

فهذه تدل على تعظيم الباطن؛ لأنك لا تعظم القرآن إلا وقد عظمت ربي الذي تكلم بهذا القرآن سبحانه وتعالى، وليس بينك وبين الله صلة في هذه الحياة الدنيا إلا هذا الكلام من كلام الله جل وعلا، هو الذي يربطك به، لا يربطك بذاته المقدسة سبحانه وتعالى إلا كلامه ، ليس ثَمَّ شيء آخر، وكل شيء آخر إنما بعلاقة غير مباشرة بالتفكر

والتدبر في خلقه وسمائه وأرضه، لذلك كان هذا التعظيم من أهم المعاملات التي يجب إصلاحها.

لذلك كان الصحابة يعظمون القراءة والتلاوة حتى يروا أثر ذلك في قلوبهم، فكانوا لا يأخذون المصحف ويجلسون على أية هيئة وعلى أية صورة مثل أحوالنا: غير مستقبل القبلة، متكأ، يمد رجليه، لا، وإنما كانوا من أدبهم - كما ذكر بعض أهل العلم - إذا أعطاه أحدهم المصحف فكان يقوم إليه احترامًا، يأخذه وهو واقف، أو يقبله، ويجلس في هيئة المتخشع الوقور، مستقبل القبلة، ثم يشرع في القراءة مرتلاً ، لأن الترتيل هو الذي يقوده إلى التدبر.

وذلك من أهم الأمور التي ينبغي أن تراعيها حال قراءتك ، فلا تقرأ القرآن مثل غيره من الكتب، ولكن كما قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٢١]، ليست كل تلاوة ولا أية تلاوة، وإنما حق تلاوته، تلك التلاوة التي يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، اللسان ليجيد هذه الألفاظ ويخرجها من مخارجها الصحيحة، والعقل ليأخذ حظه من التدبر والفهم عن الله تعالى، والقلب ليأخذ حظه من الاتعاظ والتذكر والموعظة والمسارعة بعد ذلك إلى العمل والسير إلى الله تعالى.

والتدبر - كما ذكرنا - هو التفكر والتأمل في ألفاظ القرآن ليصل إلى ما وراءها من المعاني ، وكلما ازداد المرء تدبرًا ازداد إحاطة بتلك المعاني ، وزادت عنده المعاني عما قرأ بادئ ذي بدء، ولو اضطررت أيها القارئ الكريم إلى أن تعيد الآية فلا بأس أن تعيدها، كما كرر

النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨] طوال الليل يقرأ بهذه الآية صلى الله عليه وسلم.

فلا بأس حينئذ أن تكرر الآية إن فتح عليك منها شيء، بمعنى يؤثر في القلب، وليس المقصود استنباط الأحكام، لأن هذه للعلماء، وإنما القارئ يبحث عما يقربه من الله، يبحث عن أوامره ليأتمر بها وعن زواجره ليقف عندها، ويقف كذلك عند قصصه ليرى فيها العبرة وذلك هو الذي نسميه الفهم.

قد يقول القائل: إنني لن أنتهي إذًا من ختمة واحدة إذا وقفت عند التدبر في كل كلمة وآية، فلن أنتهي من تلك الختمة ! لذلك كان كثير من السلف لهم ختمتان متوازيتان أو أكثر، ختمة فيها التدبر والاتعاظ والتأمل والتفكر والإقبال، وختمة القراءة العادية مع التأدب والترتيل.

وقد حزَّب الصحابة رضوان الله عليهم القرآن سبعة أحزاب، يقرءونها في سبعة أيام: ثلاث سور، خمس سور، سبع سور، تسع سور، أحد عشر سورة، ثلاث عشر سورة، ثم الباقي من المفصل إلى نهاية المصحف، هذه قسمتهم التي كانوا يقتسمون القرآن فيها في الأسبوع .

ويكون للمرء ختمة أخرى لو قرأ فيها ربعًا كل يوم يتدبر فيه لا بأس، يجعل هذه الختمة للتدبر والتفهم والتأمل والاستشفاء والهداية، وأن يضع أدوية القرآن على أمراض قلبه وعللها، وأن تكون طريقة إلى الله.

لا يستطيع أن يستمر في هذه الختمة إلا بشيء آخر من آداب القرآن وهو البكاء عند قراءة القرآن، لأن افتقاد ذلك البكاء يدل على قسوة القلب وجفاف العين، وبعد الناس عن الرب، وعدم التأثر بكلامه، وعدم الخشية لسماع مواعظة، وعدم لين القلب عند سماع أهوال الآخرة، وسرعة انتهاء الدنيا، ومقابلة الرب ولقائه، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إذا قرأتم القرآن فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**) (٨)، فهذه وصيته صلى الله عليه وسلم لقراء القرآن الكريم؛ حتى يكون القرآن كذلك سببًا للين قلوبهم كما ذكر الله جل وعلا عنهم: ﴿ **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر : ٢٣].

أهم الآداب الباطنة لتلاوة القرآن

أما الآداب الباطنة فنشير إلى أهمها وهو: التخصيص. أي أنك مخصوص مقصود بتوجيه رسائل القرآن إليك. إن هذا القرآن رسائل من الله تعالى يبلغها إليك، فإن أخذت هذه الرسائل - أيها المسكين - كما نأخذها اليوم فقرأتها وطبقتها وتركت المصحف، فإن ذلك ليس المطلوب. ولكن إذا أتتك الرسائل من الرب فعليك أن تقرأها ليلك كله، ثم تقوم في صباحك لتنفذ هذه الرسائل التي قد وصلتك منه سبحانه وتعالى.

---

(٨)أخرجه ابن ماجه (١/٤٢٤ ، رقم ١٣٣٧) ، والبيهقى في شعب الإيمان (٢/٣٦٢ ، رقم ٢٠٥١)، وأبو يعلى (٢/٤٩ ، رقم ٦٨٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٩١) : أضعف من فيه يزيد الرقاشي ، وقد وُثِّق على ضعفه. ولفظه: (عَنْ سَعْدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَابْكُوا ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا).

والقرآن في تخصيصه فيه الأوامر، وفيه الزواجر، وفيه الوعد، وفيه الوعيد، وفيه القصص، وفيه ذكر الجنة وذكر النار، وفيه كل ذلك الذي قد خصك الله تعالى بالكلام به، أي أنك المخصوص بقراءة هذا القرآن الكريم.

فهذه الأوامر التي في القرآن أنت تقرأها وأنت المطالب بها، أم أنها لغيرك من الناس، وأنت لست مطالب بها !؟ حتى قصص القرآن - كما ذكر الله تعالى -: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢]، فهذا القرآن قد جاء ليثبت فؤاده بهذا القصص الذي يقال، لأنه لا يقال هذا القصص عن الأنبياء وما حدث من أقوامهم من أذى وردود وغيره، إلا ليكون تثبيتا لهذه القلوب ومساعدة لها على الصمود والسير، إلا شرحًا لها لمواصلة مسيرتها إلى الله تعالى.

فكان التخصيص من أهم المسائل التي ينبغي أن تفقهها، إذا قرأت القرآن ولم تخصص نفسك برسالة الرب فيه فمن يخاطب الرب جل وعلا بهذا الكلام؟! المؤمنون الذين يقرءون القرآن هم المخاطبون أم غيرهم؟!

فالقرآن ليس جرائد أو كتاب في الدنيا تقرأه وتمتحن فيه ثم تنتهي معرفتك به بمجرد انتهاء الامتحان مثلاً، ، لا ، إنما هو سلوكك. وذلك ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا يقرءون عشر آيات لا يتجاوزونها إلا بعدما يعملوا بما فيها.

وليس معنى ذلك أن يقف الناس عن حفظ القرآن، إن وقفوا عن حفظ القرآن ضاعت الدنيا من أولها إلى آخرها؛ لأنهم إن وقفوا عن الحفظ ماذا يفعلون ؟ هم لا يحفظون

ولا يعملون، فإن قلنا: لا يحفظون حتى يعملوا فتلك إذا قسمة ضيزى : فلن يحفظوا ولن يعملوا، وتنهي الأمة وينتهى الدين! ولكن المقصود أن يصاحب الحفظ العمل بالآيات، والتحلي بآدابها، والإئتمار بأوامرها، والانتهاء عن نواهيها، وما يكون فيها من قصص ازدجروا به ؛ فلم يكن القصص لمجرد السمر وإنما للعبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١].

لذلك كان المرء محتاجًا إلى أن يعاود هذا الطريق، وأن يزيد من أوراده التي يريد أن تكون سبب فتح الله له، أن يزيد منها، وأن يتأدب بالآداب التي بها تعود عليه ثمرة هذه الزيادة. إن قرأت القرآن كما تقرأه اليوم ما الذي سيزيد عليك من بركات الله؟! لن يزيد عليك شيء من بركات الله؛ لأنك لم تفعل جديدا لله تعالى تتوسل به إليه ليكون سبب مزيد البركة والرحمة، وإنما أنت كما أنت فيما أنت فيه، وتحاول بما أنت فيه أن تكون أحسن مما أنت فيه، كيف؟! لا تكون أحسن مما أنت فيه إلا بأن تزيد عما أنت فيه بركة ورحمة، فإذا زادت البركة والرحمة تغيرت عما أنت فيه.

هذا المعنى من معاني الرحمة في قوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] فإذا أردت أن تتخلص من همك ومرضك، وأن تزداد من بركة القرآن ورحمته، وأن تزداد من نوره وضيائه وهداه وشفاه، وأنك إن ازددت من بعدك عنه وتقصيرك فيه إلى تلك الدرجة التي أوجبت هذا الجفاء بينك وبين كلام الله

تعالى، إذا عدت إلى هذا الكلام مرة أخرى إذا بك تعود وقلبك غير محب، وقلبك قاسٍ، لا تجد فيه التدبر والتأمل والتفكر، ولا تجد فيه السرور والفرح بكلام الله وهو خير مما يجمعون.

موانع فهم القرآن

موانع فهم القرآن مثل الصدأ، ولكن يصدأ بها القلب، فلا تصل أشعة النور من القرآن الكريم إلى مرآة القلب، فلا يصل إليه الهداية، ولا يصل إليه الشفاء، ولا يصل إليه الرحمة كذلك. وهذه الموانع هي أسباب عدم انتفاعك بالقرآن .

وأخطرها أن يكون المرء مصرًّا على ذنبه، أو مبتلى بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع في الشهوات وغيرها فيحجب على القلب عن تلقي أنوار القرآن. **فالمانع الأول هو** : الكبر والأشر والارتفاع على الخلق يقول الله تعالى فيه: ﴿ **كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝** ﴾ [غافر : ٣٥].

والمانع الثاني: الإصرار على الذنب، لأن الذنب يراكم الران على القلب كما قال:﴿ **كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤]، فيمنع الران وصول الموعظة وتأثر القلب بها. ولكن من كان مصرًا على المعصية، ولكنه متضايق منها، ويريد أن يتوب نقول له: أنت تجمع معاصيك ثم تضع عليها أدوية القرآن ، أما أن تضع أدوية القرآن ولم تنو التوبة، وأنت لم تنو الخروج من المظالم، ولم تنو الرجوع عن المعصية، وفك عقد الإصرار

التي أنت فيها .. فلن تنتفع بهذا القرآن، فلا أقل من أن تنوي أن تتوب إلى الله ، والقرآن سيعينك على التوبة، وسيرفع عنك هذه المصائب، ويجلي الصدأ شيئًا ما؛ لتنفذ إليه بعض أشعة الهداية والنور؛ حتى ينتهي هذا الران من القلب، وحتى يعطيك القرآن هذا التأثير الذي به تستطيع السير - بمشيئته سبحانه وفضله - في تحصيل أنوار وبركات القرآن الكريم.

المانع الثالث: هو الهوى المطاع الذي يمنع من وصول الهداية ومن تحقق القرآن في شفاء قلبه . وذلك لأن المرء كلما أراد أن يرجع وأن يتوب ، فيسير يومًا ما أو عدة أيام وقد امتنع عن اتباع الهوى، وعن الشهوة، ثم فجأة إذا به يطيع الهوى ويقع في الشهوات وتغلبه نفسه، ويرجع إلى الدنيا مرة أخرى، وتأخذه إليها. لذلك كان الهوى المتبع سبب من الأسباب المباشرة في تلك الموانع التي تمنع من وصول النور والهداية إلى القلب، والانتفاع بالقرآن الكريم حق الانتفاع.

فضل قراءة البقرة وآل عمران

ونشير إلى بعض ما ورد في فضل بعض سور القرآن لتكون تلك هي البداية التي يبدأها المرء مع كتاب الله تعالى، يقول صلى الله عليه وسلم: (**إن لكل شيء سنامًا وسنام**

القرآن سورة البقرة)[٩] ، وقوله صلى الله عليه وسلم (وإن الشيطان يخرج من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة).[١٠] وقوله صلى الله عليه وسلم في نفس السياق في فضل سورة البقرة : (إن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة).[١١]

وقال أيضًا عن سورة البقرة وسورة آل عمران: إنهما الزهراوان – أي: اللتان تضيئان إضاءة ملؤها النور الشديد الذي ينير للمرء طريقه إلى الله تعالى - يأتيان يوم القيامة كالغمامتين أو الغيايتين يظلان على صاحبهما من حر جهنم أو كالفرقان – أي طائفتين من الطير الصواف – يظلان صاحبهما يوم القيامة. [١٢]وذلك لاشتمالها على أحكام الدنيا والآخرة، وأحكام الشريعة وما كذلك ما يتبين به سير المرء في فقهه وعلمه، وأحكام الجهاد وغيرها من الأحكام.

---

(٩) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢/٢ ، رقم ٢٣٧٥) ، والحاكم (٧٤٨/١ ، رقم ٢٠٦٠) وقال : صحيح الإسناد.

(١٠) أخرجه مسلم (٥٣٩/١ ، رقم ٧٨٠) ، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ).

(١١) أخرجه مسلم (٥٥٣/١ ، رقم ٨٠٤) ، ولفظه (عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: « اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ولا يسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ).

(١٢) أخرجه مسلم (٥٥٣/١ ، رقم ٨٠٤) ، ولفظه (عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزَّهْرَاوَيْنِ البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمَامَتَانِ أو غَيَايَتان أو كأنهما فِرْقَان من طير صوافٍّ يحاجَّان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ولا يسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ).

لذلك فقد ورد عن أنه من قرأ سورة البقرة وسورة آل عمران في صباحه برئ من النفاق حتى يمسي، وإن قرأهما ليلاً برئ من النفاق حتى يصبح [١٣]. لذلك كانت عادة كثير من السلف أن يقرءوهما بعد جزئهم، أي: بعد وردهم الذي يحافظون عليه ليلهم ونهارهم، وهذا طريق ينبغي ألا يفرط فيه المرء إذا علم أن البركة فيه وألا ينشغل عنه مخافة أن يضيع عليه وقت آخر. وأنت الآن في مرحلة المجاهدة فلا تستبدل شيئًا بشيء بل تزيد شيئًا جديدًا من البركة التي بينها الله لك.

وقد رجح كثير من الأئمة أن في سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة طه اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، وهي في قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ... ﴾ [البقرة : ٢٥٥]، وهي أعظم آية في كتاب الله، وفي قوله في بداية آل عمران: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢]، وفي طه ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ...﴾ [طه : ١١١].

فاجتمع في سورة البقرة أن فيهما الاسم الأعظم لله تعالى وأنها سنام القرآن، فإذا ما واظب المرء على ورده علاوة على هاتين السورتين في تلاوته وتدبرهما والدعاء بهما يوشك أن تتغير تلك الأحوال التي هو فيها.

---

(١٣) أخرجه القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن (١/٤٠٠ ، رقم ١٠٠٠) ، ولفظه (عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي ، أن يزيد بن الأسود الجرشي ، كان يحدث أنه « من قرأ البقرة وآل عمران في يوم ، برئ من النفاق حتى يمسي ، ومن قرأهما في ليلة برئ من النفاق حتى يصبح » . قال : فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه).

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شدة القتال ما كان يثبت معه إلا أصحاب البقرة، ففي غزوة حنين التي قال المولى تعالى فيها: ﴿... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ...﴾ [التوبة : ٢٥] جاء المسلمون ليقاتلوا هوازن وغيرها من أهل الشرك، وكان ذلك بعد فتح مكة وكان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الطلقاء الذين في إسلامهم تردد أو الذين خرجوا للغنيمة ، أو ليفرحوا بهزيمة المسلمين، أو ليروا ماذا سيتم.

وقد خرج معه قومٌ حمية لدين آبائهم وقومهم، لئلا تعلو هوازن قريشًا، كهذا الرجل الشيبي الذي كان يحمل مفتاح الكعبة، قال: خرجت لا محبة في الإسلام ولا معرفة له ولكن خشية أن تعلو هوازن قريشًا، ووقفت فقلت يا رسول الله – هو كان يخفي كفره ويظهر إسلامه – إني أرى رجالا بيض على خيل بلقاء قال: لا يراها إلا كافر، ثم وضع يده على صدري فقال: (**اللهم اهد شيبة**) [١٤] ثلاث مرات، ثم ما أن رفع يده عن صدري حتى كان أحب الناس إلى صلى الله عليه وسلم.

---

(١٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٤٥٦) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٤٦)، وأورده ابن كثير في السيرة (٦٣٢/٣) ، ولفظه (عن شَيْبَة بْنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: " خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَاللهِ مَا أَخْرَجَنِي الْإِسْلَامُ وَلَا مَعْرِفَتُهُ، وَلَكِنْ أَنِفْتُ أَنْ تَظْهَرَ هَوَازِنُ عَلَى قُرَيْشٍ، فَقُلْتُ وَأَنَا وَاقِفٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَرَى خَيْلًا بُلْقًا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّهُ لَا يَرَاهَا إِلَّا كَافِرٌ " . فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرِي، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ اهْدِ شَيْبَةَ " . ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: " اللهُمَّ اهْدِ شَيْبَةَ " . فَمَا رَفَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ مِنْ صَدْرِي الثَّالِثَةَ حَتَّى مَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ).

وكانت الدائرة على المسلمين في أوائل القتال ودخلوا فم الشعب فإذا هوازن قد انتظرتهم بالنبال وضربوهم، فتقهقر من تقهقر من المسلمين، ووقف النبي وحده وثلة قليلة حوله، وهو يتقدم بكل شجاعة إلى نحور العدو ويقول: (**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**) [١٥].

وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رجلاً صيتًا جهوري الصوت، يعني: عاليه جدًّا، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: (**ناد على أصحاب البقرة، ناد على أصحاب بيعة الرضوان**) [١٦]، فقال: يا أصحاب سورة البقرة، فرجعوا كما ترجع الإبل إلى أولادها ، وكان أحدهم يلوي عنق فرسه فإن لم يستطع ألقاه وأخذ سيفه ورجع ماشيًا إلى النبي، حتى اجتمع حوله قوم بلغوا مائة وأخذوا يقاتلون الكفار.

---

(١٥) أخرجه البخاري (٣/١٠٥١ ، رقم ٣٠٤٢) ، ومسلم (٣/١٤٠١ ، رقم ١٧٧٦)، ولفظه (عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ سَأَلَ رَجُلٌ الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ يَا أَبَا عُمَارَةَ أَوَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ الْبَرَاءُ وَأَنَا أَسْمَعُ: أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُوَلِّ يَوْمَئِذٍ، كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذًا بِعِنَانِ بَغْلَتِهِ، فَلَمَّا غَشِيَهُ الْمُشْرِكُونَ نَزَلَ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، قَالَ: فَمَا رُئِيَ مِنْ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ).

(١٦) أخرجه مسلم (٣/١٣٩٨ ، رقم ١٧٧٥)، ولفظه (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «أَيْ عَبَّاسُ! نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ ». فَقَالَ عَبَّاسٌ وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا: فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟! قَالَ: فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا. فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ).

فلم يثبت في هذا اليوم ولم يعد إلا أصحاب البقرة، فكانت هذه القصة دليلاً - كذلك - على أنه ليس في المواقف التي تحتاج إلى الثبات والصبر وتحمل الأذى والعذاب والضيق والشدة في كل أحوالها إلا أهل القرآن فقط.

وإن حدث ذلك في عهد النبي فقد حدث ذلك بعده في حروب الردة عندما قاد خالد بن الوليد جيش المسلمين لمقاتلة مسيلمة الكذاب، في غزوة اليمامة، وهاجم أصحاب مسيلمة المسلمين هجومًا شديدا جدا، حتى وصلوا إلى خباء امرأة خالد نفسه رضي الله عنه، فنادوا: يا أهل القرآن يا أصحاب البقرة فتداعى أهل القرآن مرة أخرى وحفروا قبورهم ثم هاجموا مسيلمة الكذاب وقومه وصبروا له صبرا لم يعهد مثله من المسلمين، حتى اضطروهم وألجئوهم إلى ما يسمى بحديقة الموت، التي نسمع عنها في السيرة، فاجتمع فيها مسيلمة وآلاف معه، وأغلقوها ولم يستطع المسلمون أن يفعلوا لهم شيئًا، حتى قال البراء بن مالك، وهو أحد مجابي الدعوة -: ألقوني في الحديقة، فرفعوه على التروس، ثم رفعوه بالرماح وألقوه، فما زال يقاتلهم دون الباب حتى فتحه وحده رضي الله عنه.

وانطلق المسلمون يهاجمون الحديقة من حيطانها ومن بابها ومن جُدرها إلى أن تنزل نصر الله تعالى، ولم يبقَ إلا مسيلمة، فقتله وحشي بن حرب قاتل حمزة، يريد أن يستدرك ما فعله في قتل حمزة، فضربه بحربته فخرجت من الجانب الآخر، فأدركه أبو دجانة فضربه بالسيف فقتله.

كان سبب النصر في تلك القصة هم أهل القرآن وأهل سورة البقرة، فكانت كل المواقف التي انتصر فيها المسلمون أيام النبي وبعده - صلى الله عليه وسلم - وكذلك كانت كل المواقف الصعبة في الدعوة ونشرها والقيام بها وكل علماء الأمة ومجاهديها وزهادها وعبادها كانوا هم أصحاب القرآن الذين يقفون بصدورهم لا يمر منهم أحد ، ولا يقاتل الكفرة مدبرًا منهم أحد، كلهم مقبلين على الشهادة أو أن يفتح الله عليهم.

هؤلاء قد تحملوا الصعاب والمشاكل والهجرة والغربة والقتل والمشقة والألم، من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وكانوا يستمسكون بالقرآن في أحلك أوقاتهم. ونحن في هذه الأيام نجد شيئًا من التعب والمشقة والألم، فإذا أول ما نترك؛ نترك القرآن الكريم، وتقول: إن شاء الله بعد المرض سأبدأ في تلاوة القرآن ومراجعته، وبعد الامتحان سأتفرغ لذلك، وبعد كذا وكذا ! أي أن القرآن هو "الحائط المائل"الذي إذا ما أردت أن تتخلص من شيء تخلصت منه أولاً !

القرآن والدعوة إلى الله تعالى

لما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم لدعوة الناس، كان القرآن الكريم هو زاد النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم بهذه المهمة الصعبة، ويواصل ثباته عليها وسعيه ونشر دعوته بها، وكان هو سبب تثبيته في أحلك الظروف التي أحاطت به صلى الله عليه وسلم، عندما وصل به الضيق والشدة إلى الحالة التي لا يصل إليها أحد من البشر، وهي أنه كاد أن

يقتل نفسه صلى الله عليه وسلم همًا وحزنًا وأسفًا على ترك الناس لدعوة الله وعدم الإيمان به، كما قال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣] باخع: أي قاتل نفسك ،صلى الله عليه وآله وسلم. فكان التوجيه الإلهي: لا يصل الأمر بك إلى أن تقتل نفسك في الدعوة إلى الله تعالى، والتحسر على تركهم الإيمان، ولكن وجه قواك وطاقتك وجهدك ووقتك لأمرهم بالدعوة إلى الله تعالى، وألا يبقى منك مخزون في ذلك لغير الدعوة إلى الله والقيام بأخذ الناس إلى بابه سبحانه وتعالى.

لذلك كان أول الأوامر التي أمر الله عز وجل بها نبيه صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته، كما قال: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل:٢-٤] وكل داعية بعده ينبغي أن يسير على هذا الدرب؛ لأنه إذا لم يُقدر القرآن هذا القدر في بداية دعوته وإصلاحه ويعلم قيمته وخطره وعظمته فإنه لن يستفيد به في إصلاح نفسه ولا دعوة غيره، وإذا لم يعظم القرآن الكريم لن يكون ذلك سببًا في شفاء قلبه وبدنه ونور طريقه إلى الله تعالى وبركة وقته وجهده، وكذلك لن يكون له هذا الحفظ من الشيطان ووسوسته، كلما امتلأ القلب نورًا ابتعد عنه الشيطان، وكلما امتلأ القلب نورًا كان قلبًا أبيض كالصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.

وقد أيّد الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته في العصر المكي بأعظم المؤيدات التي تكون سببًا في انتشار الدعوة وثباتها وتحمل أبنائها للصعاب والشدة، وكذلك تكون سببًا لشرح صدورهم وإضاءة طريقهم إلى الله تعالى، وكان أعظم هذه

المؤيدات هو القرآن الكريم ، كما قال سبحانه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه : ٤ – ٥].

فلما أعطاه القرآن بيّن له أن هذا القرآن هو سبب بركة الدعوة ونورها وشفاء أهلها وهدايتهم، وأن القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم -فإن سنة النبي وحي من الله تعالى ولكنه غير متلو-هما السبيل إلى نشر الدعوة.

وقد كان القرآن هو السبب المباشر في أن تتحول قلوب المشركين إلى قلوب مؤمنة، فعندما كانوا يسمعون كلام الله تعالى كانت تتغير قلوبهم ووجوههم ويدخلون الإسلام مثل ما حدث في قصة إسلام عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة، وحتى المشركون الذين لم يسلموا منهم كان يستمعون القرآن ثم يقول قائلهم: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق) (١٧) ويرجع إلى قومه فيقولون: لقد آتاكم بوجه غير الذي ذهب به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهم من عتاة المشركين!

وكذلك لما دخل الإسلام المدينة عندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه إليهم، فإنه كان يقرأ عليهم القرآن، فقرأ على سعد بن معاذ وأسيد

---

(١٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/١٩٩) ، وفي شعب الإيمان (١/ ١٥٦ ، برقم ١٣٤)، وأورده الطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥) وابن كثير في تفسيره (٤/٥٣٣) . ولفظه (كَانَ الوَلِيدُ بْنُ المغِيرَةِ سَيِّداً مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ ، عَظِيمَ المالِ والجَاهِ ، وَلَهُ عَشَرَةُ أَبْنَاءٍ . سَمِعَ مَرَّةً رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقْرَأُ القُرْآنَ فِي المسْجِدِ الحَرَامِ فَتَأَثَّرَ بِذَلِكَ ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ : وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّداً آنِفاً يَقُولُ كَلَاماً مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الإِنْسِ ، ولاَ مِنْ كَلَامِ الجِنِّ ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ ، وَإِنَّهُ يَعْلُوا وَمَا يُعْلَى عَلَيْهِ).

بن حضير رضي الله عنهما وغيرهما ممن جاءت به السيرة، فكان ذلك سبب هدايتهم، فبعد أن جاء سعد بن معاذ يتوعد مصعبا أن يدع ذلك القول الذي يسفه به أحلامهم ويعيب به آلهتهم، فما أن سمع القرآن حتى دخل في الإسلام وعاد إلى قومه بوجه جديد [١٨].

إذن لن يفلح أحد في الدعوة إلى الله سواء في إصلاح نفسه أو في دعوة غيره إلا أن يبدأ بالقرآن الكريم، وأن يصاحبه حتى ينتهي به، أي أن يكون القرآن الكريم مصاحبًا له في كل خطواته، إن افتقد القرآن يومًا ما اختلت دعوته واختل نظام نفسه الساعي به إلى الله تعالى، وأظلم عليه طريقه إلى الله جل وعلا، وزادت عليه الوساوس، وأقبل عليه الشيطان.

عاقبة أهل القرآن في الدنيا والآخرة

وهي المسألة التي نختم بها الكلام لنرى كيف قام الصحابة بتجربة القرآن- مع التجوز في هذا اللفظ في حقهم رضي الله عنهم-، ولكن لنرى ما حل عليهم لما كان من إقبالهم على كلام الله تعالى ، ولتبين علة هذه الأمور الجميلة التي ظهرت في هذا الجيل القرآني الفريد .

---

(١٨) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٩)، وأورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٢٨٤)، وابن كثير في السيرة (٢/ ١٨٢) وموضع الشاهد فيه (.. قَالَ فَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَرْبَتَهُ . ثُمّ أَقْبَلَ إلَيْهِمَا ، فَلَمّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ : هَذَا سَيّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَك ، فَاصْدُقْ اللهَ فِيهِ قَالَ مُصْعَبٌ إنْ يَجْلِسْ أُكَلّمْهُ . قَالَ فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا . مُتَشَتّمًا ، فَقَالَ مَا جَاءَ بِكُمَا إلَيْنَا تُسَفّهَانِ ضُعَفَاءَنَا ؟ اعْتَزِلَانَا إنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعَ فَإِنْ رَضِيت أَمْرًا قَبِلْتَهُ وَإِنْ كَرِهْته كُفّ عَنْك مَا تَكْرَهُ قَالَ أَنْصَفْت ثُمّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ إلَيْهِمَا ، فَكَلّمَهُ مُصْعَبٌ بِالْإِسْلَامِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَقَالَا : فِيمَا يُذْكَرُ عَنْهُمَا : وَاَللهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلّمَ فِي إشْرَاقِهِ وَتَسَهّلِهِ . ثُمّ قَالَ مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَجْمَلَهُ كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدّينِ..).

نبدأ بقصة أسيد بن حضير مع تلاوة القرآن، وكان أُسيد من سادات المسلمين رضي الله عنه ، وبينما هو يقرأ سورة البقرة وبجواره فرسه إذ تحركت الفرس، فكلما قرأ تحركت، وكلما ترك القراءة سكنت، وكان ولده يحيى قريبًا منها، فخاف أن تطأ الفرس ولده الصغير وهو نائم، قال: فرفعت رأسي إليه ومضيت لآخذه، ثم رفع رأسه إلى السماء قال: فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت لئلا أراها، ثم قص ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ**) (١٩)

وقد رأوها في حديث ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه –والحديث في سنده مقال– وكان ممن استشهدوا يوم وقعة الحديقة مع مسيلمة الكذاب، وكان من هؤلاء الذين حفروا لأنفسهم حفرة ليقاتلوا فيها لكي لا يرجع أبدا، ولا يعطيهم ظهره، ووقف رضي الله عنه إلى أن قتل شهيدًا.

---

(١٩) أخرجه البخاري (١٩١٦/٤ ، رقم ٤٧٣٠) ، ومسلم (٥٤٨/١ ، رقم ٧٩٦)، ولفظه (عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنْ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتْ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ فَقَرَأَ فَجَالَتْ الْفَرَسُ فَسَكَتَ وَسَكَتَتْ الْفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتْ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ قَالَ فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجَتْ حَتَّى لَا أَرَاهَا قَالَ وَتَدْرِي مَا ذَاكَ قَالَ لَا قَالَ تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ).

يقول الصحابة: ألم تر دار ثابت بن قيس رضي الله عنه لم تزل تزهر بمصابيح، كأن هناك مصابيح من مصابيح الإنارة الشديدة تزهر فوق داره، فقالوا للنبي قال: **(لعله كان يقرأ سورة البقرة)** فذهبوا إليه قال رضي الله عنه: كنت أقرأ سورة البقرة . وقد ذكر هذا الحديث ابن حجر في فتح الباري وهو حديث مرسل.

أما حديث التالي فقد جاء في الصحيحين: **(عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ)** [٢٠]، والسكينة هي: إما الوقار وإما الرحمة وإما الطمأنينة وإما الملائكة، وكل من هذه المعاني بحسب سياقها الوارد فيه كما يقول ابن حجر. أما الإمام النووي فالأظهر عنده: أن السكينة التي تتنزل لقراءة القرآن هي رحمة وطمأنينة معها الملائكة، فلم تكن شيئل يروه في المنام مثلا أو غير ذلك، وإنما هي الرحمة والطمأنينة تنزل معها الملائكة.

فهذا القرآن سبب لتنزل نور حسي، يراه المرء بنفسه ويرى هذه المصابيح وهي تضيء بيته، وتضيء مكانه الذي يقرأ فيه، ويزدان المكان بهذه الملائكة.

---

(٢٠) أخرجه البخاري (١٩١٤/٤ ، رقم ٤٧٢٤) ، ومسلم (٥٤٧/١ ، رقم ٧٩٥)، ولفظه (عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ).

عندما يسمع المرء هذه الأحاديث ويعلم بنزول الملائكة، وإنارة المصابيح، ترتبط القلوب والألسنة والعقول بالله تعالى، ولا شك فإن المرء يكون متطلعًا كلما سمع هذه الأحاديث لأن تضيء له تلك المصابيح، وأن يرى تلك الأنوار، وينشرح صدره، ويضيء طريقه، وأن يصبح مطمئنًا بالله تعالى، قد تحققت له هذه الأماني التي سمعها في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وبشر بها أهل الإيمان ؛ ليروا ذلك بأعينهم فتثبت قلوبهم، ويستنير طريقهم إلى الله تعالى.

فإذا حيل بين المرء وبين تلك الأنوار فذلك بسبب هذه الوساوس الشيطانية التي تبعده عن كلام الله تعالى، بأنه سوف يتدبر بعد أن يتفرغ من هذه المهمة التي في يده، وعندما يرجع من سفره، وعندما ينتهي من كذا سيجلس وسيفرغ وقته وقلبه وعقله وذهنه ولسانه لتنزل هذه الملائكة، وليرى هذا النور، وليستضيء بهذه المصابيح التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم! فيمنعه ويحرمه الشيطان ونفسه وهواه وما قدم من دنيا، وما قدم من شغل فيها عن أن يصل إلى هذه الدرجة، وأن يرتقي إلى هذا الحال.

وذلك ما نحن فيه اليوم، علم المرء بذلك وأحب أن يراه، وتطلع إليه، ورأى نفسه مسرورا بأن يكون ثبات المؤمنين بهذه الأمثلة التي بينها الله تعالى في الصحابة، ويريد أن يصل إلى هذا المقام، وأن يعلو إلى هذه الدرجة، ولكن حيل بينه وبينها.

فهلا عقد المرء عزمه مرة أخرى، وهلا نوى وعاهد الله تعالى على ألا يقطعه عن ربه سبحانه وتعالى شيء وألا يمنعه من الله تعالى مانع، لأنه إن خرج من الدنيا ولم يحقق ذلك، فإنه حينئذ لم ينشرح صدره، ولم ترض نفسه، ولم ير قرة العين والسرور لكلام الله تعالى.

وما شيء في الدنيا ينبغي أن يكون أحب إليه من ذلك؛ إذ هذه ثمرة معرفة الله ومحبته، وثمرة الإقبال عليه والتعلق به، ويدل زهد المرء فيها، وأنه لا يبالي بها ، ولا يتطلع إليها هذا التطلع الذي حقه أن يفني وقته وعمره جميعا وأن ينفق ماله ليرى شيئًا من ذلك، ليرى هذه المصابيح التي أضاءت له، إذ هو برؤيته إياها قد فاز فوزًا عظيمًا، إذ هو برؤيته إياها قد ارتفع إلى هذه الدرجات العالية، التي رفع إليها هؤلاء المتقون المؤمنون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقائدهم صلوات الله وسلامه عليه.

عاهد المؤمنون أنفسهم مرة أخرى على تنفيذ هذا الحال مع الله تعالى، وهو : جرب نفسك مع القرآن، لا يكن القرآن أول ما تهجر وأول ما تقلل، ولكن إذا ضاقت عليك الدنيا بأسرها فأول ما يمكن أن تزداد منه هو القرآن؛ حتى يوسع الله عليك، وحتى يزداد خيرك، وحتى تحضرك الملائكة، وحتى تبعد عنك الشياطين، وأن تكون من أهل سورة البقرة ثباتًا وشدة في الدين، وقوة في اليقين، ونورًا في القلب، ونورًا في الوجه .

والعاقبة التالية في الدنيا هي: رفع تسلط الكفار على المسلمين، فقد تكالب أعداء الإسلام في كل مكان في الداخل والخارج على الإسلام وأهله ومحاربتهم. وما كان ليصمد

المؤمنون وليصبروا وتنتقل إليهم الكرَّة وليكونوا هم القادرين على مواجهة أعدائهم إلا بما كانوا عليه من حال مع قرآن.

وقد ازدادت المآسي وازدادت الحرب على القرآن وأهله وعلى السنة وأهلها، ولا طريق للمؤمنين اليوم إلا أن يعاودوا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ليصمدوا ولتزداد ميادين كفاحهم، ولتتسع رقعة المسلمين فيهم، ولتزداد بذلك الرحمة النازلة، فتخف هذه المصائب التي أحاطت بهم.

لأنه ما أحاطت بهم هذه المصائب إلا بأنهم قصّروا -أول ما قصروا - في هذا الكتاب الذي هو سبب علوهم، وسبب رفعتهم، وسبب ثباتهم، وشرح صدورهم، وسبب مددهم وقوتهم، وسبب فهمهم وعلمهم، وسبب ما أنزل الله تعالى من نصرهم وعزهم.

يقول سالم مولى أبي حذيفة لما قيل له في غزوة اليمامة: أتخشى أن نؤتى من قِبَلك ؟ قال: (بئس حامل القرآن أنا) [٢١]، أي: هو يكون بئس حامل القرآن إذا لم يستطع أن يحمى الراية

---

(٢١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٢٥٢ ، رقم ٥٠٠٦)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٧٧)، ولفظه (أَرْسَلَ أَبُو بَكْرٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الْيَمَامَةِ لِقِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَرْسَلَ قَبْلَ ذَلِكَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ، وَكَانَ عَدَدُ جَيْشِ بَنِي حَنِيفَةَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَلَمَّا وَصَلَ خَالِدٌ جَعَلَ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ، وَعَلَى الْمَيْمَنَةِ زَيْدَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ أَبَا حُذَيْفَةَ.

وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ خَالِدٌ عَلَى كَثِيبٍ يُشْرِفُ عَلَى الْيَمَامَةِ، فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ، وَرَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَرَايَةُ الْأَنْصَارِ مَعَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ حَتَّى حَفَرَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ لِقَدَمَيْهِ فِي الْأَرْضِ إِلَى

وأن يحملها، وأن يدافع عنها، وأن يموت دونها. فلا يؤتى الدين من طريق أهل القرآن أبدا!

عاقبة أهل القرآن في الآخرة

نبدأ الكلام بذلك الحديث الذي يبين موقف أهل القرآن في الآخرة، ثم نبين بعض المعاني المهمة التي ظهرت في أحوالنا لنعلم: كيف يصل المؤمنون إلى ذلك المستوى !

فالمؤمنون اليوم يقرءون القرآن ويختمونه ويتلونه في بيوتهم ومجامعهم وفي مساجدهم، ولم تتحصل بقراءتهم تلك البركة في أنفسهم ودعوتهم وأهلهم ، ولم تنتشر بتلك البركة دعوتهم. فلماذا اختلف الحال وظهر التباين بين قراءتهم وقراءتنا وبين تلقيهم القرآن وتلقينا؟! بحيث صار تلقيهم إلى هذا الحال العالي وتلك المرتبة السامية التي أوصلتهم في الدنيا والآخرة إلى ما سمعنا عنه ووصل بنا الحال إلى ما نحن فيه؟ ذلك هو السؤال الذي نطرحه لعلنا نستطيع الإجابة عليه.

أَنْصَافِ سَاقَيْهِ بَعْدَمَا تَحَنَّطَ وَتَكَفَّنَ، فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا حَتَّى قُتِلَ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ لِسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: أَتَخْشَى أَنْ نُؤْتَى مِنْ قِبَلِكَ؟ فَقَالَ: بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا إِذًا).

والحديث الذي يصادفنا هو قول النبي صلى الله عليه وسلم : **(القرآن يلقى صاحبه عندما ينشق عنه قبره فيقول له: هل تعرفني؟ يقول: ما أعرفك يقول : أنا الذي أظمأت هواجرك وأسهرت ليلك)**[٢٢].

أول ما نلاحظ هو قوله: أنا الذي أظمأت هواجرك وأسهرت ليلك، يعني: لست صاحبك الذي تقرأني وتغلق المصحف وتقوم، لست صاحبك الذي كنت تقرأني بغير تدبر ولا تفهم، لست صاحبك الذي كنت تقرأني بلا عمل ولا تذكر ولا تبصر، لست صاحبك الذي كنت تقرأني بغير أن تقوم بي ليلك وأن تصوم في نهارك، فأنا الذي أظمأت هواجرك.

ترى لو لم يكن الحال كذلك، ماذا كان يقول له؟ يقول له: أنا صاحبك القرآن الذي كنتَ لاهيًا وأنت تقرأني، جئت اليوم لأشفع لك عند الله تعالى ؟! أنا القرآن الذي نمت عني فجئت اليوم لأشفع لك عند الله تعالى ببركة نومك عني طوال الليل؟! أم أنا ذلك القرآن الذي تأخرت عن العمل بي والدعوة إلى وألفت شهواتك ونزواتك وغفلاتك وجئت اليوم لأكون حجابا بينك وبين النار ؟! ما كان يمكن لهذه الإجابة أن تكون !

---

(٢٢) أخرجه أحمد (٣٥٢/٥ ، رقم ٢٣٠٢٥) ، والدارمي (٥٤٣/٢ ، رقم ٣٣٩١) ، والحاكم (٧٤٧/١ ، رقم ٢٠٥٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٤/٢ ، رقم ١٩٨٩). ولفظه (وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ له: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ لَهُ الْقُرْآنُ: أَنَا الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ)

ومعنى : الهواجر في قوله: (**أنا الذي أظمأت في الهواجر**)، أي: الظهر الشديد الحر في الصيف، أظمأتك فيه ، أي جعلتك بعبَري وعظاتي وما تعلمت مني أن تصوم ذلك اليوم الشديد الحر، ذلك اليوم الشديد القيظ ، فأنت استبدلت براحتك الصوم، واستبدلت بأكلك وشربك وشهواتك أن تمتنع عن ذلك لربك سبحانه وتعالى لذلك جئتك ! تراه كان يمكن أن يجيء لهذا الذي قد أخذ حظه من الشهوات والنوم والأكل والشرب والنساء، ويقول له: أنا جئتك اليوم، أنا صاحبك الذي يأخذ بيدك إلى الجنة؛ لاتباعك الشهوات وميلك إليها وتسويفك للتوبة وتأخيرك للعمل الصالح حتى يأتي الشتاء لتصوم في الأيام الباردة التي لا يحس بالصوم فيها أحد؟! كلا.

يقول: (**وأسهرت ليلك**) وذلك السهر إنما هو دليل وعبرة لبقية أعماله التي أتاها، ترى قد أتاه فقط للصيام والقيام؟! لم يأته للصدقة ولم يأته للعمل بهذا القرآن كما قال: (**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**) [٢٣] أو لم يأته لهذه الدعوة التي قام بها وتحمل مشقاتها، أو لم يأته لهذا البكاء الذي كان يبكيه عند تلاوة القرآن، أو لم يأته لهذه الأحوال الحسنة التي كانت تظهر عليه حال القراءة من الخشوع والتدبر والإقبال على الله وأن يعاهد ربه ألا يعود إلى هذه المعاصي، وأن يتنزل هذا القرآن على قلبه شفاء ورحمة. إذن لم يأته لأنه أسهر ليله في غير القيام لله تعالى، ولكن كما قال: ﴿ **قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ**

(٢٣) أخرجه البخاري (١٩١٩/٤ ، رقم ٤٧٣٩).

﴿عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل : ٢- ٤]، لأنه كما ذكر أهل العلم فإن قراءة القرآن في الصلاة في المسجد هي أفضل أنواع هذا الذكر.

ترى ماذا يكون جزاء صاحب القرآن الذي كان على ذلك الحال؟ يقول: (**فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين ما تقوم لهما الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن**)[٢٤]

فلم يقف منح الله تعالى وثوابه وجزيل عطائه عنده ذلك القارئ الظامئ الساهر لعبادة ربه، القائم بدعوته، الواقف عند حدوده ، ولكن تعداه ليشمل أبواه.

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم (**اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعًا لأصحابه يوم القيامة**)[٢٥] ويأتي شفيعًا لتلك الأمور والأحوال التي غيّرت قلبه وبدنه، وغيّرت سعيه، وغيّرت قوله وفعله، وغيّرت ظاهره وباطنه، ونقلته إلى أن يكون عبدًا جديدًا مع الله تعالى، كما تنزل القرآن على هؤلاء الكفرة فانقلبوا إلى أن أصبحوا من عظماء الإسلام: أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة وطلحة، وغيرهم ممن سبق إلى الإسلام، ثم من بعدهم

---

(٢٤) أخرجه أحمد (٥/٣٥٢ ، رقم ٢٣٠٢٥) ، والدارمي (٢/٥٤٣ ، رقم ٣٣٩١) ، والحاكم (١/٧٤٧ ، رقم ٢٠٥٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقى في شعب الإيمان (٢/٣٤٤ ، رقم ١٩٨٩). ولفظه (فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ بِمَ كُسِينَا هَذِهِ فَيُقَالُ بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا)

(٢٥) أخرجه مسلم (١/٥٥٣ ، رقم ٨٠٤). ولفظه (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ).

كذلك، كان يسمع الواحد منهم الآية، فتكون سبب إسلامه، فإذا ما أسلم لها انقلب حاله إلى البكاء والخشية والجهاد والبذل وتحمل المشقة.

وذلك على على عكس ما نحن فيه، فيكون المرء في حياته التي لا معرفة بربه فيها: كثير النشاط، سريع العمل، قويا فيما يكون فيه من الشهوات والدنيا ، فإذا ما سار في طريق الله انقلب حاله إلى الخمول والنوم والكسل وقلة العمل وإلى التراخي وإلى التسويف وإلى التواني والكسل، وإلى أحوال غريبة نراها اليوم !

أما هم فكان حالهم: (**أنا الذي أظمأت هواجرك وأسهرت ليلك**) وهذه التي يجب أن تتنزل على قلوب المؤمنين ؛ لينتظروا هذه الجائزة من الرب سبحانه وتعالى في دنياهم وآخرتهم، كما جاء في الحديث: (**اقرأ ورتل وارتق كما كنت تقرأ في الدنيا فدرجتك عند آخر آية تقرأها**)[٢٦]، فتلك درجات الجنة لهم وكذلك لأولادهم، الذين حملوا القرآن الكريم فيكرم آباءهم بحملهم ذلك القرآن، كما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

إن أدينا ما علينا في ذلك حصلنا تلك الدرجات في الآخرة وعادت أنوار القرآن كما بدأت أيام النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ ما استنارت الدنيا إلا بنزول هذا الوحي، وارتباط

---

(٢٦) أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٧ ، رقم ١٤٦٦)، والترمذي (٥/ ١٧٧ ، رقم ٢٩١٤)، وقال: حديث حسن صحيح. ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»)

الأرض بالسماء، وبانتشار بركة القرآن، التي كانت هي القوة الدافعة المعينة للمؤمنين على أن يواصلوا سيرهم إلى الله تعالى.

الكل ينبغي أن يبدأ .. من يحب ربه ويقبل عليه ويرجو رحمته ويخشى عذابه ويريد نصر نفسه وبركتها ويريد رزق نفسه وهدايتها وهداية أهله وولده، من يريد من الله تعالى ما لا يكثُر على الله جل وعلا وما لا يكبُر عليه سبحانه وتعالى، فعليه إدمان كلامه، فإنه حينئذ إن طلب من الله جل وعلا فإن الله سيعطيه ولن يحرمه سبحانه وتعالى شيئًا من ذلك، بل هو أكرم وأعظم وأجل من أن يلوذ المرء ببابه فيغلقه دونه جل وعلا.

الفهرس

مقدمة ٣

الفصل الأول: بركة القرآن الكريم ٧

الفصل الثاني: نور القرآن الكريم ٢٩

الفصل الثالث: جرب نفسك مع القرآن ٥٣

الرد على من يقول: من أين الوقت؟ ٥٨

أهمية معاهدة النفس بعد المجاهدة ٦١

التأدب بآداب تلاوة القرآن ٦٤

موانع فهم القرآن ٧١

فضل قراءة البقرة وآل عمران ٧٢

القرآن والدعوة إلى الله تعالى ٧٨

عاقبة أهل القرآن في الدنيا والآخرة ٨١

لا سبيل لإصلاح شأن المسلمين اليوم مما يعانون منه ويشتكون إلا القرآن الكريم. إنهم يشتكون في هذه الأيام من الشهوات والشبهات وضيق الوقت وقلة ذات اليد وسوء الأخلاق وكثرة المنكرات. وإن بركة ونور القرآن الكريم هما الزاد الذي فتحه الله تعالى لهم ليتزودوا منه؛ لتحل تلك البركة عليهم وعلى أولادهم وبيوتهم وحتى يكون القرآن نورًا عليهم وعلى من حولهم وسببًا لثباتهم وتحملهم الصعاب والمشاق والمتاعب، وليخرجهم من ظلام الاحتجاب عن الله إلى نور الثبات على طريقه، والاستنارة بوحيه سبحانه وتعالى.

الطبعة الأولى